مقدمة

في حياة أمتنا ــ شأن غيرها من الأمم ــ رجال عظام: أدباء ومفكرون، نفخر بهم ونحتفي بذكراهم ونعنى بآثارهم. على أن غناء أمتنا من شعرائها الذين احتسبوا في الخالدين وبنوا صرح تاريخنا الأدبي جد كبير. ومنهم، الشاعر العربي حبيب بن أوس الطائي المكنى ابا تمام.

ولسوف تقرأ هذا العدد الخاص بذكراه، ثم تخرج بأنه شمخ بمذهب شعري جديد في القرن الثاني للهجرة لم يبلغ شأوه أحد، شادته موهبة نادرة انطوت على أصالة في مزج فني بين ضروب التصنيع المألوفة والتلوين العقلي والحسي. مع روعة في الأداء ودقة في التصوير وعمق في المعاني.

وكان لهذا المذهب القدح المعلى في نضج حركة النقد العربي وتحديد مناهجه بما أثاره من أوار بين مخاصم إياه ومنتصر له، لم يخمد حتى يومنا هذا.

وحقاً، إن شعره مشدود الى روح العصر الذي عاش فيه : فاتصل برجال عصره من خلفاء ووزراء وكتاب، وصور البطولة الاسلامية في صراعها مع الروم البيزنطيين، كما أرخ ثورة بابك الخرمي ومقتل الأفشين ومازيار، وغيرها من الأحداث، وغدت أنماط الثقافة آنذاك ــ على تعدد مناحيها وسعتها ــ حلية يتحلى بها ويعرضها في شعره عرضاً فنياً جديداً. ولما كان نضو أسفار فان ملامح أصيلة من البيئات المتعددة التي طوف فيها ليحتضنها شعره.

وهو ــ بعد هذا وذاك ــ انسان أصيل طموح. كافح منذ نعومة أظفاره ليحصل على بلغ من صبابة العيش تسعفه للاختلاف الى حلقات العلم

ومجالس الأدب .

ومن هنا، كان من الوفاء لهذا الشاعر الكبير أن نحفل بذكراه ونخلدها في مهرجان أدبي .

ولا يفوتنا، هنا، أن نقدم شكرنا الجزيل للأساتذة الذين بادروا للاسهام ببحوثهم في هذا العدد على الرغم من ضيق الوقت وقصره الذي منحوه لتقديمها وبعد ...

نرحب بالضيوف مفكرين وأدباء، الذين وفدوا للمشاركة في المهرجان من أرجاء، الوطن العربي ، ونقول لهم :

أهلا بكم في الموصل، موئل الفكر والأدب .



ابو تمام والفن الشعري

الدكتور عمر الطالب

فنه الشعري في ميزان النقد :

عني ابو تمام عناية كبيرة بالشعر العربي برمته. اذ جمع الشعر العربي في كتب الحماسة وغيرها . وكان هذا الاطلاع على الشعر العربي من العوامل التي ادت الى صقل ذوقه الفني بالاضافة الى حسه الفني وصفاء عقله ، مما جعل ابا تمام يجيد قول الشعر في جميع الفنون فنبغ في الشعر وعد افضل ثلاثة من المولدين وهم المتنبي والبحتري «١» . وهو اسبق الثلاثة ومنهم من يفضله على صاحبيه «٢» .

ويعد ابو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدثين انتهت اليه معاني المتقدمين والمتأخرين فكان لثقافته الاثر الكبير في ذلك اذ ترجمت في عصره الكتب اليونانية والفارسية والهندية فزادت عقله ادراكا ولطفت من خياله بالاطلاع عليها . وهو الذي مهد طريق الحكم والامثال للمتنبي وأبي العلاء وغيرهما «٣» . ولذلك كان يقال : ان ابا تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحتري .

والسبب في جودة شعر ابي تمام: أنه يأتي في تضاعيف الرؤى مباينا لما يليه فيظهر فضله . والمطبوع الذي هو في مستوى الشعر قليل السقوط لانه لايبين جيده عن سائر الشعر ومن اجل ذلك صار جيد ابي تمام معلوما ومعروفا . ويقول الامدي : «نظرت في شعر ابي تمام والبحتري في سنة سبع عشرة وثلاثمائة واخترت جيدهما وتلقطت محاسنهما ثم تصفحت شعرهما بعد ذلك على مر الاوقات فما من مرة الا وانا الحق في اختيار شعر البحتري مما لم اكن اخترته من قبل . ومما علمت اني زدت في اختيار شعر ابي تمام ثلاثين بيتا على ماكنت اخترته

(١) محمد عبدالمنعم الخفاجي ، ديوان الحماسة ،ص٥ .

(٢) المصدر السابق ، ص٧ .

(٣) احمد الهاشمي ، جواهر الادب ، ج١ ص١٩١ – ١٩١ .

قديما»«١». والسبب في ذلك ان شعر ابي تمام قد اكتسب شكلا لم يعهده العرب من قبل في شعرهم لما يحتويه من اساليب التفكير اليوناني ، ولم تبرز هذه الظاهرة في شاعر عربي بروزها في شعر ابي تمام . كما ان اسلوب تفكيره يختلف عن اسلوب تفكير شعراء العرب . لانه مثقف مطلع على الفلسفة اليونانية . وان اثر هذه الثقافة قد صبغ تفكيره بصبغة تظهره غريبا . وهذا ماجعل النقاد يختلفون في الحكم على شعره . فاكثر الامدي من سيئآته بينما اكثر الصولي من حسناته . ومن يمعن النظر في شعره يجد ان شعره اقرب الى الفكر العميق وانه ، بتعقيده ، غير مألوف بالنسبة للقارىء العادي لانه يكسو معانيه بالصنعة حتى عادت ابياته الحكمية لاتفهم الا من النحاة والفقهاء والعلماء والفلاسفة «٢»

كما ضمن شعره معاني مبتكرة والفاظا رائقة وامثالا وحكما. فهو شاعر مبدع القيت اليه زعامة الشعر فقد كان هو وابن الرومي يتعمقان الثقافة وينزعان الى التفكير ويؤثران المعاني العميقة والآراء البعيدة. وكان ابو تمام يعد الشعر صناعة دقيقة فقد كسا معانيه رونقا جديداً لم تهتد اليه جماعة المتقدمين . واقتدى به المتاخرون وكان الحسن بن رجاء يقول: ما رأيت قط اعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من ابي تمام. وسئل البحترى عنه فقال: مداحة نواحة. ولابي تمام من الشعر الذى يتمثل به ويجرى على السنة العامة وكثير من الخاصة ، مائة وخمسون بيتا كما احصاه بعضهم. وقال بعض العلماء بالشعر لما سئل عن ابي تمام: كأنه جمع شعر العالم فانتخب جوهره. وكان يقال: في طي ثلاثة: حاتم في كرمه وداؤد الطائي في زهده وابو تمام في شعره. وقال له ابن الزيات: يا ابا تمام انك لتحلي شعرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسنا على بهية جواهر في اجياد الكواعب وما يذخر لك شيء من جزيل المكافأة الا ويقصر عن شعرك في الموازاة. وسمع ابراهيم بن العباس الصولي ابا تمام ينشد شعرا له في المعتصم . فقال

(١) الامدي، الموازنة، ص١ ٥-٢ ٥ .

(٢) خضر الطائي ، ابو تمام، ص٨٢ .

له : يا ابا تمام، امراء الكلام رعية لاحسانك . وكان محمد بن حزم الباهلي يقدم ابا تمام ويفضله ويقول: لو لم يقل الا مرثيته التي اولها:

اصم بك الناعي وان كان اسمعا   واصبح مغني الجود بعدك بلقعا

والا قوله:

لو يقدرون مشوا على وجناتهم   وجباههم فضلا عن الاقدام

لكفى «١» .

وقال ابو يوسف . وكان فيلسوف العرب : هذا الفتى يموت قريبا «٢» وكان ابو تمام يختار الفاظه واسلوبه اختيارا دقيقا ويصوغه صياغة خاصة مصبوغة بالوان الترف والزخرف واصباغ البديع المتعددة التي عرفها شعراء القرن الثالث بذوقهم وعقلهم. فابو تمام شاعر مبدع القيت اليه زعامة الشعر من جميع الشعراء في عصره فكان لطيف الفطنة دقيق المعاني غواصا على ما يستصعب منها . وهو متكلف الا انه يصيب . وشغله المطابقة والتجنيس. جزل المعاني في مدحه ورثائه لا في غزله ولا في هجائه.

وطارت له امثال وحفظت له اقوال ولا يتعلق بجيده. جيد امثاله، اما رديئه فمرذول مطروح. وهو رأس في الشعر ومبتدىء لمذهب سلكه كل محسن بعده. فلم يبلغه فيه. فهو اكثر الشعراء بديعا وافتنانا وصنعة في شعره، الا أن مصنوعه جيد يشبه ان يكون مطبوعا. ولحلاوة شعره ودقة اسلوبه خفيت الصنعة فيه كثيرا «٣». ويرى البعض ان ابا تمام لا يعد في نظر اهل العصر الحاضر مثلا اعلى للشعر لانه لم ينقل في شعره كثيرا من صور العواطف التي كانت تجيش في صدر المجتمع في ذلك الحين ولم يكن كأبي العلاء حرا في ابداء ما يختلج في نفسه من المعاني ولا شجاعا في بيان ما يعتقده حقا «٤».

(١) ملحم ابراهيم الاسود، ديوان ابي تمام : ص٤، ٥، ٨ .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان، ص ١٢١ .

(٣) محمد عبدالمنعم الخفاجي ؛ ديوان الحماسة ، ص١٣ – ١٤ .

(٤) المصدر السابق، ص١٤ .

وقد قال الامدي في حديثه عن ابي تمام : سمعت ابا علي محمد بن العلاء السجستاني يقول :

انه ليس له معنى انفرد به واخترعه الا ثلاثة معان وهي قوله :

تأبى على التصريد الا نائلا   الا يكن ماء قراحا يمذق
نزرا كما استكرهت عائر نفحة   من فأرة المسك التي لم تفتق

وقوله :

بني مالك قد نبهت خامل الثرى   قبور لكم مستشرفات المعالم
رواكد قيس الكف من متناول   وفيها على لاترتقى بالسلالم

وقوله

واذا أراد الله نشر فضيلــــة   طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جــاورت   ماكان يعرف طيب عرف العود

ولست ارى الامر على ما ذكره ابو علي بل ارى ان له – على كثرة ما اخذه من اشعار الناس ومعانيهم – مخترعات كثيرة وبدائع مشهورة وانا اذكرها عند ذكر محاسنه، باذن الله «١» .

وهذا رأي الامدي اكثر من شهر سلاح النقد في وجه ابي تمام. وقوله اعتراف بفضل ابي تمام وتفوقه في الفن الشعري فكيف بمريديه واصدقائه والنقاد الموضوعيين؟ وسبب مهاجمة ابي تمام من قبل البعض يعود الى ان العرب قوم لا يقيدون النفس في الشعر باكثر مما يقيده هذا الفن على اصوله وهم يريدون للشاعر ان يقول ما يحس ويذهب في ذلك في غير مراعاة لما قاله غيره على شروط اربعة :

جودة الالة، اصابة الغرض المقصود، صحة التأليف والانتهاء الى نهاية الصنعة من غير نقص فيها ولا زيادة عليها «٢» .

---

(١) الآمدي ، الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري ؛ ج٢ ص١٣٣ – ١٣٤ .

(٢) البهبيتي، ابو تمام ، ص١٨٨ .

وقد استملح كثير من القدماء شعر ابي تمام. ويذكر ابن المعتز في كتابه «طبقات الشعراء» مجموعة كبيرة من شعره الجيد كداليته في المأمون التي أولها:

كشف الغطاء فاوقدي او اخمدي

وهي اشهر من الفرس الابلق وكل مطالع القصائد التي تذكر هنا.

وقوله: وابي المنازل انها لشجون

= سرت تستجير الدمع خوف نوى غد

= متى انت عن ذهلية القوم ذاهل

= اصغى الى البين معتزا فلا جرما

= دمن الم بها فقال: سلام

= بدلت عبرة من الايمـــاض

= الحق ابلج والسيوف عواري

وقوله: السيف اصدق انباء من الكتب

= خشنت عليه اخت بني خشين

= خذي عبرات عينك من زماع

= يوم الفراق لقد خلقت طويلا

ولو استقصينا ذكرى اوائل قصائده الجياد التي هي من عيون شعره لشغلنا قطعة من كتابنا هذا لان الرجل كثير الشعر جدا ويقال: ان له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة واكثر ما له جيد. والرديء الذي له انما هو شيء يستغلق لفظه فقط. فاما ان يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة والمحاسن والبدع الكثيرة فلا «١».

ولابي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي اراء طريفة في جودة شعر ابي تمام ذكرها في كتاب شذرات الذهب «٢».

وسئل الشريف الرضي عن ابي تمام والبحتري والمتنبي فقال: اما ابو تمام فخطيب منبر واما البحتري فواصف جؤذر واما المتنبي فقائد عسكر.

---

(١) ابن المعتز، طبقات الشعراء ص ٢٨٤ - ٢٨٦.

(٢) الحنبلي، شذرات الذهب، ج٢، ص ٧٤.

وقال ابن الاثير في كتاب المثل السائر يصف الثلاثة: وهؤلاء الثلاثة هم: لات الشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على ايديهم حسناته ومحسناته وقد حوت اشعارهم غرابة المحدثين وفصاحة القدماء وجمعت بين الامثال السائرة وكلمة الحكماء. اما ابو تمام فرب معان ... وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على اثر فهو غير مدافع عن مقام الاغراب الذي يبرز فيه على الاضراب ولقد مارست الشعر كل اول واخير لم اقل ما اقول فيه الاعن تنقيب وتنقير فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه اطاعته اعنة الكلام وكان قوله في البلاغة ما قالت حذام. فخذ مني في ذلك قول حكيم وتعلم ففوق كل ذي علم عليم «١».

وسئل المتنبي عن ابي تمام فقال: انا وابو تمام حكيمان والشاعر البحتري «٢». اراد المتنبي ان يسلك مسلك ابي تمام فقصرت عنه خطاه ولم يعطه الشعر ما اعطاه ولكنه حظي في شعره بالحكم والامثال «٣».

قال ابن الاهدل: كان يحفظ اربعة الاف ارجوزة غير القصائد والمقاطع «٤». وقال الكندي للخليفة بعد ان مدحه:

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم احنف في ذكاء اياس

اتشبه الخليفة باجلاف العرب؟ فقال: نور الله — سبحانه — اشبه بمصباح في مشكاة للتقريب.

فقال للخليفة: اعطه ما سأل فانه لا يعيش اكثر من اربعين يوما لانه قد ظهر في عينيه الدم من شدة الفكر وقيل: قال: انه يموت قريبا او شابا فقيل له: وكيف ذلك؟ فقال: رايت فيه من الذكاء والفطنة ما علمت ان النفس الروحانية تأكل جسمه كما يأكل السيف المهند غمده فقال له الخليفة: ما تشتهي؟ قال: الموصل: فاعطاه اياها فمات سريعا. «٥»

جاء في كتاب الموازنة بين الطائيين: ان دعبلا قال عن ابي تمام: ان ثلث

---

(١)—(٣) نفس المصدر السابق.
(٤) نفس المصدر ؛ ص٧٣.
(٥) الحنبلي ، شذرات الذهب ، ج٢ص٧٣و٧٤.

شعره محال وثلثه مسروق وثلثه صالح. وقال: ما جعل الله ابا تمام من الشعراء بل شعره بالخطب والكلام المنثور اشبه منه بالشعر. وقال ابن الاعرابي في شعر ابي تمام: ان كان هذا شعرا فكلام العرب باطل. فاجاب صاحب ابي تمام: ان دعبلا كان يشنأ ابا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور فلا يقبل قول شاعر في شاعر. واما ابن الاعرابي فكان شديد التعصب عليه لغرابة مذهبه ولانه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه فكان اذا سئل عن شيء منها يأنف ان يقول: لا ادري فيعدل الى الطعن عليه«١».

ويقول صاحب ابي تمام: لسنا ننكر ان يكون صاحبنا قد وهم في بعض شعره وعدل عن الوجه الاوضح في كثير من معانيه. وغير غريب على فكر نتج من المحاسن ما نتج وولد من البدائع ما ولد ان يلحقه الكلال في الاوقات والزلل في الاحيان، بل من الواجب لمن احسن احسانه، ان يسامح في سهوه. ويتجاوز له عن خطئه، وما رأينا احدا من شعراء الجاهلية سلم من الطعن. ولا من المتأخرين المحدثين، وما كان احد من اولئك وهؤلاء مجهول الحق. ولا مجحود الفضل بل عفي احسانهم على اساءتهم وتجويدهم على تقصيرهم.

وكيف ما كان الامر لا تستطيعون ان تدفعوا ما اجمع عليه الرواة والعلماء ان جيد ابي تمام لا يتعلق به جيد امثاله. واذا كان جيده بهذه المكانة وكان من الممكن اغفال رديئه واطراحه كأنه لم يقله فلا يبقى ريب في انه اشعر شعراء عصره «٢».

وقد انشد البحتري ابا تمام شعرا له «اي للبحتري» فاستجاده ابو تمام واعترف البحتري بفضل أبي تمام عليه وانه هوالذي علمه الطريقة التي يكون بها شاعرا فذا، وهنا علينا ان نذكر الوصية التي قدمها ابو تمام للبحتري فهي عبارة عن اراء لابي تمام في نظم الشعر واسلوبه واوقات نظمه.« قال البحتري: كنت في حداثتي اروم الشعر وكنت ارجع فيه الى طبعي، ولم اكن اقف على تسهيل مأخذه ووجوه اقتضابه حتى قصدت ابا تمام وانقطعت

(١) زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع ؛ ص٩١و٩٢ .
(٢) المصدر السابق ؛ ص ٩٣ .

فيه اليه واتكلت في تعريفه عليه فكان اول ما قال لي: يا ابا عبادة. تخير الاوقات وانت قليل الهموم صفر من الغموم واعلم ان العادة جرت في الاوقات ان يقصد الانسان لتأليف شيء او حفظه في وقت السحر وذلك ان النفس قد اخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وان اردت التشبيب فاجعل اللفظ رقيقا والمعنى رشيقا واكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الاشواق ولوعة الفراق فاذا اخذت في مدح سيد ذي اياد فاشهر مناقبه واظهر مناسبه وابن معالمه وشرف مقامه ونضد المعاني واحذر المجهول منها واياك ان تشين شعرك بالالفاظ الرديئة ولتكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الاجساد واذا عارضك الضجر فارح نفسك ولا تعمل شعرك الا وانت فارغ القلب واجعل شهوتك الى الشعر الذريعة الى حسن نظمه. فان الشهوة نعم المعين. وجملة الحال ان تعتبر شعرك بما سلف من شعر الماضين فما استحسن العلماء فاقصده وما تركوه فاجتنبه ترشد ان الله. قال البحتري: فاعملت نفسي فيما قال فوقفت على السياسة «١».

ويقول زكي مبارك: يجب الا نفتن بهذا القول وان نفهم ان جماله يرجع الى انه سخرية تدل على براعة وذكاء. فاذا جازلنا ان نلوم الشعراء على اسفافهم حين يطمعون في عطايا الملوك فان للشاعر رسالة يؤديها الى العالم هي فهمه العميق لاسرار الجمال «٢».

ولا اجد في رأي ابي تمام اية سخرية لان الجمال الفني ينبع دائما في طبيعة القصيدة ووحدتها العضوية والمناسبة التي تقال فيها وكل هذا ذكره ابو تمام في نصيحته للبحتري وان لم يكن يعرف انذاك معنى الوحدة العضوية.

وقد عرض البحتري شعره على ابي تمام بعد ان ذهب اليه الى حمص فقال له: انت اشعر من انشدني، فكيف حالك؟ فشكا اليه حاله فكتب الى اهل

---

(١) زكي مبارك، الموازنة بين الشعراء ص١٢٦.

(٢) زكي مبارك، النثر الفني، ص٢١.

معرة النعمان يشهد له بالحذق ويوصيهم باكرامه .قال البحتري : «فاكرموني بكتابه ووظفوا لي اربعة الاف درهم فكانت اول مال اصبته » «١» .

وقال البحتري: انشدت ابا تمام شيئا من شعري فانشدني بيت اوس بن حجر :

اذا مغرم منا ذرى حدنا به تخمط فينا ناب اخر مقدم

وقال : نعيت الي نفسي فقلت : اعيذك بالله من هذا ! فقال : ان عمري ليس يطول وقد نشأ لطيء مثلك . اما علمت ان خالد بن صفوان المنقري رأى شبيبة بن شبة وهو يتكلم – وهو من رهطه – فقال : يابني نعى نفسي الي احسانك في كلامك . قال : فمات ابو تمام بعد سنة من هذا «٢» .

ومن هنا نرى ان البحتري تأثر بابي تمام واخذ عنه اشياء كثيرة ومن جملة ما اخذ نضرب هذه الامثلة .

قال البحتري يصف الغيث محيطا بالدار :

وجاءك يحكي يوسف بن محمد فروتك رياه وجادك قاطـــره

يقول الحاتمي : ان هذا مأخوذ من قول ابي تمام :

وبيوتها في القلب نوى شفـــه وله بظاعنها وبالمتخلـــف
وكأنما استسقى لهن محمد من سومهن من الحيا في زخرف

وكذلك قول البحتري :

لو ان مشتاقا تكلف فوق ما في وسعه لسعى اليك المنبـــر

مأخوذ من قول ابي تمام :

ديمة سمحة القيـــاد ســـكوب مستغيث بها الثرى المكـــروب
لو سعت بقعة لاعظام نعمى لسعى نحوها المكـــان الجديب

وكذلك قوله :

ثناء تحال الروض فيه منورا ضحى وتخال الوشي فيه منمنما

انما اخذه من قول ابي تمام :

حلوا بها عقد النسيم ونمنموا من وشيها نشرا لها وقصيدا «٣»

(١)–(٢) زكي مبارك ، الموازنة بين الشعراء ص١٢٥ .
(٣) المصدر السابق ، ص٣٦ .

ومثل ذلك كثير في كتب الادب «١» .

وجاء في الاغاني في تفضيل ابي تمام ما نصه :

سمعت محمد بن عبدالملك الزيات يقول : اشعر الناس طرا الذي يقول :

وما ابالي وخير القول اصدقه حقنت لي ماء وجهي اوحقنت دمي

فاحببت ان استثبت ابراهيم بن العباس وكان في نفسي اعلم من محمد وآدب فجلست اليه وكنت اجري عنده مجرى الولد فقلت له : من اشعر اهل زماننا فقال : الذي يقول :

مطر ابوك ابو اهله وائل ملأ البسيطة عدة وعديدا
نسب كان عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمودا
ورثوا الابوة والحظوظ فاصبحوا جمعوا جدودا في العلى وجدودا

فاتفقنا على ان ابا تمام اشعر اهل زمانه .

اخبرني محمد بن يحيى الصولي وعلي بن سليمان الاخفش ، قالا : حدثنا محمد بن يزيد النحوي قال : قدم عمارة بن عقيل بغداد فاجتمع الناس اليه فكتبوا شعره وشعر ابيه وعرضوا عليه الاشعار فقال بعضهم : هنا شاعر يزعم انه اشعر الناس طرا ويزعم غيرهم ضد ذلك فقال : انشدوني قوله فانشدوه :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتادا عندها كل مرقد
وانقذها من غمرة الموت انه صدود فراق لاصدود تعمد
فاجرى لها الاشفاق دمعا موردا من الدم يجرى فوق خد مورد
هي البدر يغنيها تورد وجهها الى كل من لاقت وان لم تورد

ثم قطع المنشد فقال له عمارة : زدنا من هذا فوصل نشيده فقال :

ولكنني لم احو رمزا مجمعا ففزت به الا بشمل مبـرد
ولم تعطني الايام نوما مسكنا الذ بـه الا بنوم مشـرد

(١) المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، ص٧-٨، الصولي، اخبار ابي تمام ٥٠، ٥١، ٦٧، ٧٦، ٧٧ .

فقال عمارة : لله دره ! لقد تقدم في هذا المعنى من سبقه اليه على كثرة القول فيه . حتى لقد حبب الاغتراب . هيه . فانشده :

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فاني رأيت الشمس زيدت محبة الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

فقال عمارة : كمل والله . لئن كان الشعر بجودة اللفظ وحسن المعاني واطراد المراد واتساق الكلام فان صاحبكم هذا أشعر الناس «١» . وهناك امثلة كثيرة من هذا النوع في الاغاني «٢» .

وفي فضل ابي تمام يقول الامدي :

وجدت اهل الصنعة من اصحاب البحتري ومن يقدم مطبوع الشعر دون متكلفه لايدفعون ابا تمام عن لطيف المعاني ودقيقها والابداع والاغراب فيها والاستنباط لها ويقولون : انه وان اختل في بعض مايورده «منها» فان الذي يوجد فيها من النادر المستحسن اكثر مما يوجد من السخيف المسترذل وان اهتمامه بمعانيه اكثر من اهتمامه بتقويم الفاظه على شدة غرامه بالطباق والجناس والمماثلة وانه اذا لاح له اخرجه بأي لفظ استوى من ضعيف او قوي وهذا من اعدل ماسمعته من القول فيه .

واذا كان هذا هكذا فقد سلموا له الشيء الذي هو ضالة الشعراء وطلبتهم وهو لطيف المعاني وبهذه الخلة دون ما سواها فضل امرأ القيس لان الذي في شعره من دقيق المعاني وبديع الوصف ولطيف التشبيه وبديع الحكمة فوق ما في اشعار سائر الشعراء من الجاهلية والاسلام حتى انه لاتكاد تخلو له قصيدة واحدة من ان تشمل من ذلك على نوع او انواع . ولولا لطيف المعاني واجتهاد امرىء القيس فيها واقباله عليها لما تقدم على غيره . ولكن كسائر الشعراء من اهل زمانه . اذ ليست له فصاحة توصف بالزيادة على فصاحتهم ، ولا لالفاظه من الجزالة والقوة ماليس لالفاظهم . الا ترى ان

---

(١) الاغاني ، ج١٥ ص٩٧ .

(٢) الاغاني ؛ ج١٥ ص٩٩،١٠٠،١٠١ على التوالي .

العلماء بالشعر انما احتجوا في تقديمه بان قالوا : هو اول من شبه الخيل بالعصى وبالوحش وبالطير واول من قال : «قيد الاوابد » واول من قال: كذا وقال: كذا ، فهل هذا التقديم له الا من اجل معانيه ؟ «١»

وقالوا : واذا كان قد اضطرب لفظ ابي تمام واختل في بعض المواضع فهل خلا من ذلك شاعر قديم اومحدث ؟«٢»

هذا الاعشى يختل لفظه كثيرا ويسفسف دائما ويرق ويضعف ولم يجهلوا حقه وفضله حتى جعلوه نظير النابغة والفاظ النابغة في الغاية من البراعة والحسن وعديلا لزهير الذي صرف اهتمامه كله الى تهذيب الفاظه وتقويمها والحقوه بامرىء القيس الذي جمع الفضيلتين فجعلوهم طبقة وصار فضل كل واحد من غير الوجه الذي فضل منه صاحبه ولو ان ابا تمام يخلو من كل لفظ جيد او لو انه قال بالفارسية او الهندية :

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود
ولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

أو قال :

اهي البدر يغنيها تورد وجهها الى كل من لاقت وان لم تورد

او ما اشبه هذا من بدائعه حتى يفسر لنا ذلك مفسر بكلام عربي منثور اما كان هذا شاعرا محسنا يثابر شعراء زمانه عن اهل اللغة العربية على طلب شعره وتفسيره واستعارة معانيه ؟ فكيف وبدائعه مشهورة ومحاسنه متداولة ولم يأت الا بأبلغ لفظ واحسن سبك ؟ «٣»

ومما يروى من تفضيل ابي تمام قال ابو تمام بعد ان رأى اعرابيا : ياأعرابي . اين منزلك ؟ قال : اللهم ، غفرا . اذا اشتمل الظلام فحيثما ادركني الرقاد رقدت ! قلت: فكيف رضاك عن اهل العسكر ؟ قال: لاخلق وجهي بمسألتهم . او ما سمعت قول هذا الفتى الطائي الذي ملأ الدنيا شعره :

---

(١) الامدي، الموازنة بين شعر ابي تمام والبحتري، ص٢٩٧ .
(٢) المصدر السابق ، ص٢٩٨ .
(٣) المصدر السابق، ص ٢٩٩ .

وما أبالي ،وخير القول أصدقه   حقنت لي ماء وجهي او حقنت دمي
قلت: فانا الطائي قائل هذا الشعر. فدنا مبادرا فعانقني وقال: لله ابوك الست الذي يقول:

ما جود كفك ان جادت وان بخلت   من ماء وجهي اذا اخلقته عوض

قلت نعم. قال انت والله اشعر اهل الزمان، فرجعت بالاعرابي معي الى ابن ابي دؤاد وحدثته بحديثه فادخله الى الواثق فسأله عن خبره معي فأخبره.فأمر له بمال واحسن اليه ووهب له احمد بن ابي داؤد فكان يقول لي : قد عظم الله بركتك علي «١».

وروى ايضا ان ابا العباس عبد الله بن المعتز قال: جاءني محمد بن يزيد المبرد. فافضنا في ذكر ابي تمام، وسألته عنه وعن البحتري فقال: لابي لابي تمام استخراجات لطيفة ومعان طريفة لا يقول مثلها البحتري، وهو صحيح الخاطر حسن الانتزاع وشعر البحتري احسن استواء، وابو تمام يقول النادر والبارد وهو المذهب الذي كان المحبب الى الاصمعي، وما اشبه ابا تمام الابغائص يخرج الدر والمخشلب ثم قال: قال ابو بكر : وقول ابي العباس المبرد «ما اشبهه الابغائص » فانما اخذه من قول الاصمعي في النابغة الجعدي: تجد في شعره مطرفا بالاف وكساء بوافه «٢».

وروى ايضا ان احمد بن سعيد الطائي قال : كان ابن عبد واسماعيل بن القاسم– وهما علمان من اعلام الكتاب والأدب–يقولان: البحتري اشعر من ابي تمام قال: فذكرت ذلك للبحتري. فقال لي: لا تفعل يا ابن العم فوالله ما اكلت الخبز الابه «٣».

ومن امثلة تفضيله ما جاء في زهر الآداب: ان اباعلي كان جالسا في مجلس كثر فيه ذم ابي تمام والاعلاء من مكانة البحتري فقال ابو علي: وكنت ساكتا الى ان استتم كلامه، ابتدأت فقلت: لست ممن يقعقع له بالشنان قد تقدم ابو تمام الى سبك نضارها وافتضاض ابكارها وجرى البحتري على

---

(١) الصولي، اخبار ابي تمام ، ص٩٢ – ٩٣ .
(٢) المصدر السابق ، ص٩٦ – ٩٧ .
(٣) المصدر السابق ، ص ١٢٠ .

وتيرة في انتزاع امثالها وابتداعها . هل رأيت مثل قوله في الابتداء :

طلل الجميع لقد عفوت جميدا   وكفى على رزقي بذاك شهيدا
دمن كأن البين اصبح طالبا   دمنا لدى آرامها وحقودا

وقوله في الاقتضاب :

الحق ابلج والسيوف عوارى   فحذار من اسد العرين حذار

وابو تمام وصف القوافي بما لم يستطيع وصفها به احد فقال :

فان انا لم يحمدك عني صاغرا   عدوك فاعلم انني غير حامد
بسياحة تنساق من غير سائق   وتنقاد في الافاق من غير قائد
محببة ما ان تزال ترى لها   الى كل افق واحداً غير واحد
مخلفة لما ترد أذن سامع   فتصدر الا عن يمين وشاهد «١»

وقال ابراهيم بن العباس الصولي لابي تمام: الكلام يا ابا تمام رعية لاحسانك، قال : لاني استضيء بنورك وارد شريعتك وكان الطائي مع جودة شعره بليغ الخطاب حاضر الجواب وكان يقال : ثنتان قلما تجتمعان : اللسان البليغ والشعر الجيد «٢».

وكتب الحسن بن وهب الى ابي تمام الطائي : انت — حفظك الله — تحتذى من البيان في النظام مثل ما نقصد نحن في النثر من الافهام والفضل لك — اعزك الله — اذ كنت تاتي به في غاية الاقتدار على غاية الاقتصار في منظوم الاشعار فتحل معقده وتربط متشرده وتضم اقطاره وتجلو انواره وتفصله في حدوده وتخرجه في قيوده ثم لا تاتي به مهملا فيستبهم ولا مشتركا فيلتبس ولا متعقدا فيطول ولا متكلفا فيحول فهو منك كالمعجزة تضرب فيه الامثال وتشرح فيه المقال فلا اعدمنا الله هداياك واردة وفوائدك وافدة وهي طويلة فاجابه ابو تمام:

لقد جلى كتابك بث حب   جو واصاب شاكلة الرمي
فضضت ختامه فتبلجت لي   مراميه عن الخبر الجلي
وكان اغض في عيني ندى   على كبدى من الزهر الجني «٣»

---

(١) زهر الاداب، ص٦٢٠ .
(٢) زهر الاداب ص٧٢٦.
(٣) المصدر السابق ص٤٤٨

وفي تفضيله ايضا. روى ان ابن المعتز قال: جاءني محمد بن يزيد النحوي فاحتبسته فاقام عندي فجرى ذكر ابي تمام فلم يوفه حقه وكان في المجلس رجل من الكتاب. نعماني ما رأيت احدا احفظ لشعر ابي تمام منه فقال له: يا ابا العباس ضع في نفسك من شئت من الشعراء ثم انظر الحسين ان يقول مثل ما قاله ابو تمام لابي المغيث موسى بن ابراهيم الرافعي يعتذر اليه:

شهدت لقد اقوت مغانيكم بعدي ومحت كما محت وشائع من برد
وانجدتم من بعد اتهام داركم فيا دمع انجدني على ساكني نجد

ثم مر فيها حتى بلغ الى قوله في الاعتذار:

أتاني مع الركبان ظن ظننته لففت له راسي حياء من المجد
لقد نكب الغدر الوفاء بساحتي اذن وسرحت الذم في مسرح الحمد
جحدت، اذن. كم من يد لك شاكلت يد القرب اعدت مستهاما على البعد

فقال ابو العباس محمد بن يزيد: ما سمعت احسن من هذا قط؛ ما يهضم هذا الرجل حقه الا احد رجلين: اما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام، واما عالم لم يتبحر في شعره ولم يسمعه.

قال ابو العباس عبد الله بن المعتز: وما مات الا وهو منتقل عن جميع ما كان يقوله مقر بفضل ابي تمام واحسانه «١».

ومما يروى في تفضيله ان محمد بن ابي كامل قال: شهدت ابا تمام الطائي في منزل الحسين بن الضحاك وهو ينشد شعره وعنده اسحاق بن ابراهيم الموصلي فقال اسحاق: يا فتى، ما اشد ما تتكيء على نفسك، يعني انه لا يسلك مسلك الشعراء قبله وانما يستقي من نفسه «٢» وكذلك يروى ان هارون بن عبد الله المهلبي قال: كنا في حلقة دعبل فجرى ذكر ابي تمام فقال دعبل: كان يتتبع معاني فياخذها فقال له رجل في مجلسه: ما من ذلك اعزك الله؟ قال: قلت:

---

(٣) انيس المقدسي: امراء الشعر العربي في العصر العباسي ص٢٠٢.

(٢) المرزباني، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء؛ ص٧٤.

ان امرأ اسدى الي بشافع اليه ويرجو الشكر مني لاحمق
شفيعك فاشكر في الحوائج انه يصونك عن مكروهها وهو يخلق

فقال الرجل: احسن والله قال: كذبت قبحك الله قال: والله لئن كان ابتدأ هذا المعنى وتبعته فما احسنت . ولئن كان اخذه منك لقد اجاده فصار اولى به منك قال: فغضب دعبل . قال محمد: وشعر ابي تمام اجود مبتدأ ومتبعا وهو احق بالمعنى ولقد تبع البحترى ابا تمام فقال في هذا المعنى:

وعطاء غيرك ان بذلـ ـت عناية فيه عطاؤك « ١ »

ودخل ابو سعيد المخزومي على اسحاق بن ابراهيم الصعبي فانشده قصيدة وكان حسن الانشاد ثم دخل بعده الطائي فانشده وكان ردىء الانشاد فقال الصعبي للطائي : لو رايت المخزومي وقد انشدنا انفا . فقال الطائي : ايها الامير نشيد المخزومي يطرف بين يدى نشيدى « ٢ ».

وقد كان بعض العلماء يشبه الطائي في البديع بصالح بن عبد القدوس في الامثال ويقول: لو ان صالحا نثر امثاله في شعره وجعل بينها فصولا من كلامه لسبق اهل زمانه، وغلب على مد ميدانه. وهذا اعدل كلام سمعته في هذا المعنى « ٣ ».

وسالت المبرد عن ابي تمام والبحترى: ايهما اشعر ؟ قال : لابي تمام استخراجات لطيفة، ومعان ظريفة، وجيده اجود من شعر البحترى، ومن « شعر من » تقدمه من المحدثين . وشعر البحترى احسن استواء من شعر ابي تمام . لان البحترى يقول القصيدة كلها . فتكون سليمة من طعن طاعن او عيب عائب ،وابو تمام يقول البيت النادر ويتبعه البيت السخيف . وما اشبهه الا بغائص البحر يخرج الدرة والمخشلبة فيجعلهما في نظام واحد. وانما يؤتى هو وكثير من الشعراء من البخل باشعارهم. والا فلو اسقط من شعره، على كثرة عدده، ما انكر منه لكان اشعر نظرائه . فدعاني هذا

(١) المصدر السابق : ٢٧٠ .
(٢) ابن المعتز : البديع . ص١٦ .
(٣) المصدر السابق، ص١-٢٠

القول منه الى ان قرأت عليه شعر ابي تمام، وأسقطت خواطئه وكل ماذم من شعره. وافردت جيده. فوجدت ما يتمثل به ويجرى على السنة العامة، وكثير من الخاصة مائة وخمسين بيتا. ولا أعرف شاعرا جاهليا ولا اسلاميا يتمثل له بهذا المقدار من الشعر «١»

الصنعة الشعرية عند ابي تمام:

سبب الصناعة عند ابي تمام ثقافته العميقة واتصاله بعلمي المنطق والفلسفة واكثاره من استخدام الادلة المنطقية وهي عنده تستمد من احساسه العميق بتشابك حقائق الكون فيرى بعضها خلال بعض وتتخذ دليلا وحجة «٢» بالاضافة الى ذكاء نادر. ويقص القدماء عن ذكائه قصصا كثيرة، فقد مدح المعتصم فلما انتهى الى قوله:

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم احنف في ذكاء اياس

قال له الكندى: الامير فوق ما وصفت، فأطرق قليلا ثم رفع راسه وانشد:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس

فالله قد ضرب الاقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

فعجبوا من سرعة خاطره «٣»

وهناك امثلة كثيرة عن سرعة بديهته.

وتبدو أجوبته مفحمة اذا سئل. ومن ذلك انه انشد الحسن بن رجاء، فأعجب الحسن بقوله، فوقف في وسط القصيدة اعظاما له، اذ أقسم ليسمعنها واقفا فلما انتهى ابو تمام من انشادها، تعانقا وجلسا، فقال له الحسن: ما احسن ما جليت هذه العروس فقال ابو تمام: والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك لها اوفى مهورها «٤» وقد ابتدع ابو تمام لنفسه نهجا جديدا هو انتكون الالفاظ الحقيقية والمجازية في يده يتصرف بها ويبتكر، ومن هنا

---

(١) مروج الذهب، ص٦٩-٧٠.
(٢) شوقي ضيف: العصر العباسي الاول – ص ٢٧٨
(٣) الصولي: ص٢٣١ ؛ امالي المرتضى ج١ – ص٢٨٩
(٤) اخبار الصولي: ص١٧٠

لامه بعض العلماء ، وعدوا عمله هذا عدوانا على اللغة، ولكنه لم يكن يبالي الابما صوره لنفسه « ١ » وهذه العبقرية جعلت اهل بغداد يتعصبون له. وجعلت امثال احمد بن ابي دؤاد وابن الزيات يعدونه اشعر اهل الارض طراً «٢».

وقد امتاز بمذهب في الصنعة سبق به الشعراء وان كانوا قد فتحوه قبله، وقالوا القليل منه . فان له فضل الاكثار فيه، وسلوك جميع طرقه « ٣ ». وهذا رأى الدكتور البهبيتي. ويقول خضر الطائي في كتابه عن ابي تمام ان اول من حلى الشعر العربي بهذه الصناعة هو مسلم بن الوليد « ٤ » وهذا قول معروف ولكن ابا تمام اجاد فيه اجادة تامة بالاضافة الى كونه من المقدمين بحسن الديباجة ، ورقة العبارة واجادة الرثاء « ٥ » ومطلع قصيدته التي يرثى بها محمد بن حميد الطوسي، تعد مثلا اعلى من الرثاء:

الافليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

قال صاحب الاغاني : ان له مذهبا في المطابق ، وهو كالسابق في جميع الشعراء وان كانوا قد فتحوه وقالوا القليل منه ، فان له فضل الاكثار فيه ، والسلوك في جميع طرقه «٦».

وانكر الامدى هذا الفضل على ابي تمام وقال : ان استكثاره منه ، وافراطه فيه من اعظم ذنوبه واكبر عيوبه «٧».

وبين ابن رشيق فضل ابي تمام فقال : انه كان يجيد التصنيع «٨» .

اما الجرجاني فذكر ان ابا تمام كان يجمع احيانا المعنى البديع الى الصنعة اللطيفة «٩» واعتبره هو وابا نواس سيدى المطبوعين وامامي اهل الصنعة «١٠» .

وسبب اشتهار ابي تمام في المطابق والمجانس ونسبتهما اليه ، لا لانه

---

(١) عبدالعزيز سيد الاهل: عبقرية ابي تمام ص١٠٤،١٠٥

(٢) الاغاني : ج١٥، ص٩٧ .

(٣) الاغاني: ج١٥ـ ص ١٠٠

(٤) خضر الطائي: ابو تمام ص٩٩ .

(٥) ابن رشيق: العمدة - ج٢ - ص ١١١٩.

(٦) الاغاني ج٥، ص٩٦

(٧) الموازنة - ص٨

(٨) العمدة، ج٢ - ص٣٢

(٩) عبدالعزيز الجرجاني: الوساطة، ص٣١

(١٠) المصدر السابق، ص٧٩ .

اخترعهما ، فقد طرقهما الشعراء من قبله بل لانه فضل الشعراء جميعا فيه ، واكثر منه ، وسلك جميع شعبه . وكثر الجدل حوله بعد ان بالغ في سلوك هذا السبيل ، فأوقعه هذا الولوع في التعسف والشطط . ولكن النقاد والعلماء الذين يلتزمون بمعايير الكلام ، يعدون ان الجيد من شعره كثير ، وانه لايلحقه احد في جيده ولا يشق غباره «١» .

وقد استحال الشعر في يد المولدين الى صناعة يطلب فيها المعنى مع مراعاة تنسيق الالفاظ والزينة فيقابل بين اللفظة وتلك وبين المعنى وقرينه ويلاحظ الرنين والجرس واللين والجفاء وقد يعسر عليه ذلك كما يقول البهبيتي «٢» : فيفضل المعنى على اللفظ فيخشن ويستوحش او يجوز اللفظ على المعنى فينتقص ويغمض ويشتبه الشعر بالفلسفة ويخرج الشعر عن الدائرة التي وضعت له الى دائرة النثر الفني . وهذا قول مردود لان عناية ابي تمام بالتصنيع واتجاهه الى البديع المعنوي دعاه الى الاهتمام بالاستعارة والمجاز والتشبيه وانواع البيان بالاضافة الى اللمسات الرقيقة والشاعرية الجميلة والاحساس المتدفق للكثير من قصائده . كما بينا سابقا بشهادة النقاد القدامى والمحدثين .

وقال البهبيتي ايضا : انه يعنى بالمقابلة بين معنيين متضادين في البيت ، كحجمان وطوع ورضى ، وغضب ، ومجلبب وفاضل . ولكن ذلك لايؤثر في اتساق البيت وجماله باعتراف البهبيتي فقد روعيت الموسيقى اللفظية واتسعت المقاطع وحفظ التناسب ، كما في هذا البيت :

بمختبل ساج من الطرف احور ومقتبل صاف من الثغر اشنب

فكل كلمة في الشطر الاول تقابلها نظيرتها ومثيلتها في الشطر الثاني مما يدل على قصد واعتماد لذلك «٣» .

ولكن التنسيق والزخرف عند ابي تمام جزء من مشاعره واحاسيسه وكل

---

(١) محمد محيي الدين عبدالحميد : شرح ديوان ابي تمام ص٧ .

(٢) البهبيتي : ابو تمام ، ص ١٨٦

(٣) البهبيتي : ابو تمام الطائي ، ص٨

بيت من ابياته جزء من نفسه فقد روى ابن رشيق : انه استأذن على ابي تمام فوجده ينقلب يمينا وشمالا ، فقال له : هل بلغ بك الحر مبلغا شديدا ؟
قال : لا ، بل غيره . ومكث كذلك ساعة ، ثم قام كأنما اطلق من عقال .
فقال : الآن اردت ثم استمد ، وكتب شيئا لم يعرفه ابن رشيق ، ثم قال :
اتدري ماكنت فيه منذ الان؟كنت في قول ابي نؤاس :

كالدهر فيه شراسة وليان

اردت معناه فشمس علي حتى امكن الله منه فصنعت :

شرست بل لنت بل قانيت ذاك بذا فانت لاشك فيه السهل والجبل «١»

وكان ابو تمام يشقى في بناء واستنباط معانيه ، وكان يشعر بغرابة الفاظه التي يصطادها في اشعاره ، لانه يطلب الاغراب في فنه ، لكي يسبغ على شعره كل ما يمكن من الجمال والروعة .

وقد عاش لصناعته ، ينميها ويزيدها حليا ووشيا وترصيعا «٢» . وصور ذلك في شعره :

خذها مثقفة القوافي ربها لسوابغ النعماء غير كنود
حذاء تملأ كل اذن حكمة وبلاغة وتدر كل وريد
كالدر والمرجان ألف نظمه بالشذر في عنق الفتاة الرود
كشقيقة البرد المنمنم وشيه في ارض مهرة او بلاد تزيد

والدليل على ذلك ، ان من جاء بعده من الشعراء ، قلدوا صنعته . بعد ان استقرت استقرارا كاملا ، عندما اخذت الفلسفة تتوطد دعائمها ، بعد ان ظفر العقل الاسلامي ، طفرة واسعة فاخذ الشعر العربي يتطور مع الفكر في الوان من التعبير تتطلب لاجمال اللفظة فقط بل عمق الفكر وغدا الشعر فنا يصنع صناعة «٣» . وقد كان للغة السريانية التي نقل عنها العرب الكثير من كتب اليونان اثر في الاساليب ودراسات البلاغة والخطابة والشعر والاهتمام باللفظ والرخص الشعرية ، وتجميل العبارة ، والاهتمام بموسيقى اللفظ

---

(١) العمدة ج١، ص١٣٩ (٢) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه ، ص٢٢٦.
(٣) البهبيتي: ابو تمام ،ص١٨٤

والبديع حتى سمعنا ابا تمام يحدث البحتري عن الاستطراد في الشعر ويضرب له المثل «١» .

كما نسمع الخليل والاصمعي قبل ان يكتب ابن المعتز كتابه«البديع»يتحدثان عن المطابقه والوان البديع «٢».

ويقول ابن المعتز في مقدمة كتابه البديع : قد قدمنا في كتابنا هذا بعض ماوجدناه في القرآن من الكلام الذي سماه المحدثون البديع ليعلم ان بشارا ومسلما وابا نؤاس ومن تقبلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا الى هذا الفن ولكنه كثر في اشعارهم فعرف في زمانهم ثم ان حبيب بن اوس الطائي من بعدهم شغف به ، حتى غلب عليه ، وتفرع فيه ، واكثر منه ، فاحسن في بعض ذلك واساء في بعض .

ويقول ابن رشيق : ويزعم بعض المتعصبين ان الذي اكثر في هذا الباب ابو تمام وتبعه الناس من بعده «٣» .

ويقول الجرجاني في حديثه عن الاستعارة : وقد كانت الشعراء تجري على نهج قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه ابو تمام ومال الى الرخصة فاخرجه الى التعدي وتبعه اكثر المحدثين «٤» .

والسبب في ذلك يرجع الى ثقافة ابي تمام الواسعة والى تعمقه الفلسفة اليونانية فهو تلميذ لأرسطو حين يجمل اللفظ وحين يطلب البديع .وان الزينة اللفظية عنده لم تكن الا وسيلة

يستعيض بجمال موسيقاها. وقد اخطأ ابن رشيق حين عارض ابن الرومي في قوله عن ابي تمام:«ان الطائي كان يطلب المعنى ولا يبالي بلفظ حتى لوتم له المعنى بلفظة نبطية لاتى بها » وقال بعض من نظر بين ابي تمام وابي الطيب: انما حبيب كالقاضي العادل يضع اللفظة موضعها ويعطي المعنى

(١) العمدة :ج٢ ؛ص٣٢، ٣٣

(٢) العمدة:ج٢ :ص٧، ٨ ، اعجاز القرآن للباقلاني ص٤١، ٤٣

(٣) العمدة : ج٢ ،ص١٥

(٤) الوساطة :ص ٣٢٣

حقه بعد طول النظر والبحث عن البيئة او كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج خوفا على دينه . وابو الطيب كالملك الجبار يأخذ ماحوله قهرا او عنوة ، يهجم على مايريده لايبالي مالقي ولا حيث وقع «١» .

والسبب الذي دعا بعض النقاد القدامى والمحدثين الى مهاجمة الشاعر ، انه اتى بأشياء لم يألفها العرب في شعرهم فاذا وصف الحلم وصفه برقة الحاشية واذا اراد ان يصف دقة الخصر قال :

من الغيد لوان الخلاخل صورت　　　لها وشحا جارت عليها الخلاخل

وهم ينكرون ان يكون الخلخال وشاحا والخلخال عندهم شيء ضيق .

وقال الامدي : ان هذا الجسم الذي يتخذ الخلخال وشاحا هو اشبه بجسم الجمل «٢».

وقول الامدي يعتمد على الصراع الذي كان قائما بين القديم والجديد فقد كان العصر العباسي الاول عصر تجدد مادي ونفسي وعقلي فمن البديهي ان لصاحبهم تجددا ادبيا في نمط القصيدة . والثورة على التقاليد الشعرية العربية القديمة بالاضافة الى الامتزاج الدموي والعقلي بين العرب والفرس والسريان والهنود في تلك الامبراطورية العربية المترامية الاطراف . فمن العبث انكار تأثر البديع العربي اذ ذاك بالادبيات الغريبة عنه ، اما اللفظ فقد صفي ونقي وجود وقد استعملت الفاظ مولدة من الفارسية واليونانية واخذ البديع العربي يظهر بمظهر جديد . وقد نشأت هذه المعارضة للشعر الجديد بعاملين : اولهما :الحنين الى الماضي ،وثانيهما :ان ذلك العصر كان عصر الجمع والتدوين لاثار الماضين فاقبل الناس على قراءة القديم واستيضاح معانيه وخصائصه لاقامة حياتهم على ماضيهم والتعصب للقديم خاصة بعد التسلط الاجنبي في عصر المأمون والمعتصم ومابعد هما .

وحدث صراع قوي بين انصار القديم وانصار الحديث لايعتمد على النقد

---

(١) البهبيتي: ابو تمام،ص ٢٠٠

(٢) اخبار ابي تمام، ص ١٠٥،١٠٦

الموضوعي . بل على التعصب والعناد فالناس جميعا كانوا يحبون الشعر الحديث والعلماء منهم كذلك وان تعصبوا للقديم . ونجد ذلك في قصة ابن الاعرابي وشعر ابي تمام وفي قصة ابي رياش القيسي وشعر البحتري وغيرهما «١» .

وقد استخدم ابو تمام الوان التصنيع القديمة فاقتدى بمسلم ، ولكن تفوق على استاذه في الاكثار من الوشي والوانه . وقد لاحظ ذلك القدماء ويقول الباقلاني : وربما اسرف ابو تمام في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة حتى استثقل نظمه واستوخم رصفه «٢» .

ولكن ابا تمام استطاع ان يخلق الصور الجميلة عن طريق الجناس ، تلك الصورة التي لم نتعرف عليها من قبل . كقوله في مطلع قصيدة لابن الزيات :

متى انت من ذهلية الحي ذاهل وقلبك منها مدة الدهر آهل
تطل طلول الدمع في كل موقف وتمثل بالصبر الديار المواثل

الى آخر القصيدة .

ويؤيد الدكتور شوقي ضيف موقف ابي تمام في الوان التصنيع التي استخدمها فيقول : انه استخدم طريقتين : الاولى ، متعاقبة لا يتعلق بعضها ببعض كما نجد ذلك عند مسلم وعند جماعة من الصناعيين في القرن الثالث من امثال البحتري اما الطريقة الثانية فتمتزج فيها الالوان ويمر بعضها ببعض فتتغير شياتها وهيئاتها كما نجد عند ابي تمام في اكثر احواله «٣» .

كما استخدم الطباق واضاف اليه الصورة والحركة ويشاكل بين الصورة والتصنيع اذ يقول :

اظن الدمع في خدي سيبقى رسوما من بكائي في الرسوم

اذ جعل آثار الدمع في خده كآثار ديار المحبوبة . وكقوله يصف صواحبه :

لآليء كالنجوم الزهر قد لبست ابشارها صدف الاحصان لا الصدفا

---

(١) الوساطة : ص ٥٠،٥١

(٢) اعجاز القرآن : ص٥٣

(٣) الفن ومذاهبه ص٢٣٠ .

فهن لآلىء متسربلات بالعفاف والطهر «١» .

وقد ذكرت له كتب البلاغة القديمة والحديثة نماذج كثيرة من الجناس والطباق . واستشهدت بابيات من شعره ، لتوضيح الموضوعات البديعية . فقد فرع التبريزي من باب التجنيس ضربا سماه التجنيس المستوفي : وهو ان تتشابه الكلمتان لفظا وخطا . واحداهما اسم والاخرى فعل . وانشد فيه قول ابي تمام :

ما مات من كرم الزمان فانه   يحيا لدى يحيى بن عبدالله «٢»

واستشهد في باب التوهيم اذ قال: ان التوهيم توهيم يوهم انه طباق او تورية او غير ذلك من المحاسن كقول ابي تمام :

تردى ثياب الموت حمرا فما اتى   لها الليل الا وهي من سندس خضر

فان قوله: حمر وخضر يوهم ان ذلك طباقا وليس بطباق اذ الاحمر لايضاد الاخضر فهذا شاهد توهم المطابقة «٣» . كما استشهد في باب المناسبة بقول ابي تمام :

مها الوحش الا ان هات اوانس   قنا الخط الا ان تلك ذوابل

فناسب بين مها وقنا مناسبة تامة وبين الوحش والخط واوانس وذوابل مناسبة غير تامة وهذا البيت من افضل بيوت المناسبة لما انضم اليها فيه من المحاسن فان فيه مع المناسبتين التشبيه بغير اداة ، والمساواة والاستثناء والطباق اللفظي ، والتلاف اللفظ مع المعنى والتمكين «٤» .

واعتمد ابن الاثير في كتابه (المثل السائر) على ابيات كثيرة من شعر ابي تمام لشرح انواع التجنيس فاخذ للتجنيس الحقيقي قوله :

فاصبحت غرر الايام مشرقة   بالنصر تضحك من ايامك الغرر

---

(١) الفن ومذاهبه، ص٢٣١ .

(٢) تحرير التحبير، ص ١٠٤

(٣) تحرير التحبير، ص٣٥١ .

(٤) المصدر السابق، ص٣٦٨-٣٦٩ .

فالغرر الاولى استعارة من غرر الوجه والثانية من كرم الشيء فاللفظ واحد والمعنى مختلف وكذلك قوله :

من القوم جعد ابيض الوجه والندى وليس بنان يشتدي منه بالجعد
فاحدهما يصف به السخي والاخر يصف به البخيل «١».

والامثلة كثيرة.

كما اعتمد على ابيات من شعر ابي تمام في المشبه بالتجنيس كقول ابي تمام:

ايام تدمي عينه تلك الدمى فيها وتقمر لبه الاقمار

وكقوله:

بيض فهن اذا رمقن سوافرا صور وهن اذا رمقن صوال «٢»

واستشهد كما استشهد ابن الاثير بالتجنيس المعكوس ما روى عن ابي تمام انه لما قصد عبد الله بن طاهر بن الحسين بخراسان وامتدحه بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

اهن عوادي يوسف وصواحبه فعزما فقدما ادرك السؤل صاحبه

انكر عليه ابو سعيد الضرير وابو العميثل هذا الابتداء وقالا: لم لا يقول ما يفهم؟فقال: لم لا يفهمان ما يقال؟ فاستحسن منه هذا الجواب على الفور وهو التجنيس المشار اليه «٣».

كما استشهد ابن الاثير على المشبه بالتجنيس المتساوي في الوزن والتركيب مع تقدم الحروف وتأخرها قول ابي تمام:

بيض الصفائح لاسود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب «٤»

كما استحسن الجرجاني لابي تمام جناسه الناقص :

---

(١) ابن الاثير ،المثل السائر ،ص٣٤٣ — ٣٤٦.

* الشبه بالتجنيس هو ان تكون الالفاظ متساوية في الوزن مختلفة بالتركيب بحرف واحد لاغير .

(٢) المثل السائر ،ص ٣٥٣ — ٣٥٥.

(٣) المثل السائر ،ص٣٥٨ .

(٤) المصدر السابق،ص٣٦٠ .

يمدون من ايد عواص عواصم تصول باسياف قواض قواضب «١»

كما اكثر من الطباق المختلف لاظهار معانيه الفلسفية وذلك لصلته بالمنطق والفلسفةوكثرة استخدامه الادلة المنطقية ،كقوله:

هي البدر يغنيها تورد وجهها الى كل من لاقت وان لم تورد

فانظر الى صاحبته فهي تود من لا تود وهو يثبت هذا التضاد الغريب بتلك المفارقة الطريفة. وكان ابو تمام يقصده احيانا ويسميه «توافر الاضداد» فيقول في مديح ابي دؤاد:

قد غرستم غرس المودة والشحناء في قلب كل قاري وبادي

ابغضوا عزكم وودوا انداكم فقروكم من بغضه ووداد

لاغدقتم غريب مجد ربقتم في عراه توافر الاضداد «٢»

وكقوله في وصف الربيع:

لما بكت مقل السحاب حيا ضحكت حواشي خده التلب

فكأنه صبح تبسم عن سحر ضئيل في ضحى شحب

وكقوله:

ياصاحبي تقصيا نظريكما تريا وجوه الارض كيف تصور

تريا نهارا مشمسا قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقمر

فقد امتزجت اصباغ الطباق عند ابي تمام، بهذه الاصباغ الفلسفية الغريبة من توافر الاضداد، وكأنه يحررنا من عقال الزمان والمكان الى عالم طليق من الوهم «٣».

وقد اطلق انيس المقدسي على ذلك اسم «التأنق البديعي» «٤» في مدح ابي تمام لابن الزيات لأن القصيدة مليئة بالرونق والجمال والصفاء:

---

(١) الوساطة،ص٤٣.

(٢) الفن ومذاهبه،ص ٢٥٠.

(٣) المصدر السابق،ص٥٣.

(٤) انيس المقدسي ، امراء الشعر،ص١٨١.

تطل الطلول الدمع في كل موقف　　وتمثل بالصبر الديار المواثل
دوارس لم يجف الربيع ربوعها　　ولا مرخ اغفالها وهو غافل
فقد سحبت فيها السحائب ذيلها　　وقد اخملت بالنور منها الخمائل
مها الوحش الا ان هات اوانس　　قنا الخط الا ان تلك ذوابل

وقد عد صاحب اعيان الشيعة ما يقرب من اربعين نوعا من البديع الذى هو من محسنات الكلام وعد غيره له انواعا اخرى «١» .

واكثر بديعه يأتي عفو الخاطر بلا تعمل ولا قصد يتطلبها المعنى كالطباق والجناس في قوله :

السيف اصدق انباء من الكتب　　في حده الحد بين الجد واللعب

وقوله :

اذا احسن الاقوام ان يتطاولوا　　بلا نعمة احسنت ان تطـول

وقوله :

بيض اذا انتضت من حجبها رجعت　　احق بالبيض ابدانا من الحجب

وامثاله كثير ... وقد اعاب عليه البعض افراطه في استعمال البديع وتعمده التجنيس والطباق والارصاد، الى سقطات كان غنيا عنها ، كقوله :

فاسلم سلمت من الآفات ماسلمت　　سلام سلمى ومهما اورق السلم «٢»

كما اعاب عليه عبد القاهر الجرجاني تجنيسه ايضا «٣» .

وعده البعض تهويشا لانه يصرف الذهن عن السير وراء المعنى ويسمره عن نغمة اللفظة «٤» .

ان الغموض الذي يكتنف شعر ابي تمام وليد نهضة ادبية «٥» . ومن اهتمامه

---

(١) عبقرية ابي تمام، ص٩٤.
(٢) بطرس البستاني، ادباء العرب، ص١٠٧-١٠٨
(٣) اسرار البلاغة، ص٤ - ١٠ .
(٤) عبقرية ابي تمام، ص٩٦
(٥) الفن ومذاهبه ، ص ٢٤١ .

بعلوم عصره ، كما ان الصلة بعصره وثقافة عالمه المتفلسف تمثل في طلبه المعنى الغريب طلبا مبالغا فيه واختياره اللفظ واشارته الى بعض المذاهب الفلسفية كالجهمية والجعفرية واستخدام بعض الفاظ الفلسفة كالجوهر والعرض وضربه الامثال باحداث من التاريخ «١» .

وعن الانسكلوبيديا الكولومبية : ويعرف عن قصائده غالبا بحوادثها التاريخية التي تعتبر بمثابة مصادر مهمة في التاريخ «٢»

وينكر خضر الطائي ان التعقيد في شعر ابي تمام كان بتأثير الفلسفة، ويعزو ذلك الى انه خالف سنة القول الماثورة عند العرب في فقه لغتهم وانه اغرب في العبارة اغرابا ابعدها عن التناول الا بتأمل «٣» .

واتهمه الدكتور طه حسين بانه بدأ التعقيد في الشعر العربي «٤» . وانكر الجرجاني في اسرار البلاغة والمرزباني في الموشح على ابي تمام كثرة استعمال الغريب المصدود عنه من الكلمات واسماء الامكنة وان كلامه اقرب الى تفسير بقراط منه الى الشعر «٥» .

وقال عنه الامدي: انه شديد التكلف، صاحب صنعة، ويستكره الالفاظ والمعاني، وشعره لا يشبه اشعار الاوائل ، ولا على طريقتهم، لما فيه من الاستعارات البعيدة، والمعاني المولدة، وانه ينحط عن درجة مسلم، لسلامة شعر مسلم وحسن سبكه وصحة معانيه، ويرتفع عن سائر من ذهب هذا المذهب وسلك هذا الاسلوب لكثرة محاسنه وبدائعه واختراعاته «٦» .

وقال عنه ابن رشيق القيرواني « يأتي للاشياء من بعد » ومعنى ذلك هيامه

---

(١) البهبيتي، ابو تمام ص ١١٢ .
(٢) Encyclopedia of columbia - 1963
(٣) خضر الطائي، ابوتمام، ص٨٣-٨٤ .
(٤) طه حسين، من حديث الشعر والنثر ، ص٩٢ .
(٥) بروكلمان، ج٢ص٧٣ .
(٦) الامدي، الموازنة ، ص٦ .

بالغريب من المعاني «١» .

وقال عنه الجرجاني: لم يرض بهاتين الخلتين – يقصد غرابة اللفظ وتطلب البديع – حتى اجتلب المعاني الغامضة، وقصد الاغراض الخفية، فاحتمل فيها كل غث ثقيل، وارصد لها الافكار بكل سبيل، فصار هذا الجنس من شعره اذا قرع السمع لم يصل الى القلب الا بعد اتعاب الفكر، وكد الخاطر والحمل على الكريهة «٢» .

واكد انيس المقدسي ذلك اذ قال: ان من يطالع ديوانه يقف حائرا امام طلاسمه وغموض معانيه «٣». ولكنه استدرك قائلا: ولكن اذا راضت له بالدرس والتفكر رأى فيها ما يلذه من صور جميلة ومعان رشيقة «٤» ومثال ذلك مطلع قصيدته لعبد الله بن طاهر التي مر ذكرها، وذكر انه لما بدأ بانشاد هذه القصيدة في مجلس الامير قيل له: لم تقول ما لا يفهم ؟ فاجاب السائل: لم لا تفهم ما يقال ؟

وقد وصف الشاعر قصائده بقوله :

فكأنما هي في السماع جنادل وكأنما هي في القلوب كواكب
وغرائب تأتيك الا انها لصنيعك الحسن الجميل اقارب

وجاء في كتاب الموازنة: كان ابو تمام يتتبع حوشي الكلام، ويتعمد ادخاله في شعره «٥» .

وقال الامدى: كان ابو تمام مشغوفا بالشعر مشغولا مدة عمره بتخيله ودراسته، وله كتب اختياراته فيها مشهورة: منها الاختيار القبائلي الاكبر. وقد مر على يدي هذا الاختيار ومنها اختيار تلقط فيه اشياء من الشعراء المقلين والشعراء المغمورين ويلقب بالحماسة، وهو اشهر اختياراته. ومنها اختيارات المقطعات

---

(١) ابن رشيق: العمدة ج ١، ص ٨٥
(٢) الوساطة، ص ٢٤–٢٥ .
(٣) امراء الشعر العربي في العصر العباسي، ص ٢٠٧ .
(٤) المصدر السابق، ص ٢٠٧ .
(٥) الموازنة، ص ١٢٠.

يذكر فيه اشعار المشهورين وغيرهم والمتقدمين والمتأخرين، وهذه الاختيارات تدل على عنايته بالشعر، وانه اشتغل به وجعله وكده، واقتصر من كل الاداب والعلوم عليه. فانه ما من شيء كبير من شعر جاهلي ولا اسلامي ولا محدث الا قراه واطلع عليه «١». وقيل: انه كان يحفظ اربعة عشر الف ارجوزة غير القصائد والمقاطيع، وقال هو عن نفسه: لم انظم الشعر حتى حفظت سبعة عشر ديوانا للنساء خاصة دون الرجال «٢».

ولعل ذلك راجع في الاكثر الى كثرة محفوظه ودرسه شعر الاقدمين وشغفه بالقديم وشدة اعجابه بشعره حتى لم يكن ليرضى ان يمسه بادنى تهذيب.

قال ابو هلال العسكرى: كان ابو تمام يرضى باول خاطر فنعي عليه عيب كثير «٣». وعن الاغاني روى عن بعض الشعراء ان أبا تمام انشده قصيدة له احسن في جميعها الا في بيت واحد فقال له: يا ابا تمام لو القيت هذا البيت ما كان في قصيدتك عيب. فقال له: انا والله اعلمه مثلما تعلم، ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل اولاده، فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلو في نفسه «٤». ويعلل تعقيده باختلاف البيئة والاستعداد الفكرى وطبيعة العنصر. وانكر خضر الطائي ان يكون للعنصر اليوناني والثقافة اليونانية اثر في هذا التعقيد «٥».

ولكن احدا لا ينكر ان ثقافته الواسعة وازدياد معرفته بالعلوم والشعر والرواية صبغوا شعره بالتعقيد لانه اراد ان يعمق الشعر عن طريق الفاظ ذات دلالات والوان عدة ليقربها الى السامع ففشل مع القارىء السطحي ونجح مع القارىء المثقف وان الذين لم يفهموه كان السبب في عدم فهمهم دقة معانيه

---

(١) الموازنة، ص٢٣، ٢٤.
(٢) ابن خلكان، ج١ ص١٧٠.
(٣) امراء الشعر العربي في العصر العباسي، ص ٢١٣.
(٤) الاغاني، ج١٥ ص١٠٠
(٥) خضر الطائي : ابو تمام، ص١٠٤ – ١٠٥.

وقصورهم عن فهمه، وقد فهمه العلماء واهل النفاذ في الشعر فاذا عرفت هذه الطبقة فضله لم يضره طعن من طعن بعدها عليه «١» كما انه عمد الى اظهار علمه باللغة وبكلام العرب فتعمد ادخال الفاظ غريبة في مواضع كثيرة من شعره مثل قوله :

هن البجارى يا بجير اهدى لها الأبوس الغوير

وقوله :

قدك اتئب اربيت في الغلواء

وقوله :

امرم بكر تبارى ايها الحفض «٢»

والدليل على ذلك انه افتتح الكثير من قصائده ببكاء ديار الحبيبة ومخاطبة الطلول برغم انه زعيم المحدثين في الشعر العربي وكانما كان يتحدى بذلك مذهب ابي نواس تحديا دافعه العصبية للعرب على العجم وكذلك وصفه الرحلة الى ممدوحه وذكر الصحراء والابل والظلام واغراقه في ذلك احيانا اغراقا يقارب بين شعره وشعر الجاهلية «٣». ويغلب التكرار على لفظ ابي تمام فيجعله ظاهرة من ظواهر شعره وهي مرصعة ببديعه وكان القدماء يسمونها رد الاعجاز على الصدور «٤». وامثلته على ذلك كثيرة يمتليء بها ديوانه ، كقوله :

الجو جوى اذا غنمت بغبطة والارض ارض والسماء سمائي

وقوله :

لم يعط نازلة الهوى حق الهوى دنف اطاف به الهوى فتجلدا

وليس هذا التكرار بسبب الضعف او العجز او الافتقار الى الفكرة «٥»

---

(١) الامدي، الموازنة، ص١٩ .
(٢) الامدي، الموازنة ص٢٥ .
(٣) البهبيتي، ابو تمام ، ص١١٢ .
(٤) كتاب البديع لابن المعتز ، ص٤٧-٤٨ .
(٥) البهبيتي، ابو تمام، ص٢٣٥، ٢٣٦ .

وهو لا يجمد عند الصور التي تشيع في جمهور اهل الادب بل يستنبط الصور فهو يصطاد المعاني كما يصطاد الالفاظ فعندما نظم قصيدته البائية التي اولها:

على مثلها من اربع وملاعب اذيلت مصونات الدموع السواكب

حتى اذا انتهى الى قوله :

واحسن من نور يغنمه الندى

وقف عند هذا الشطر واذا بسائل يسأل على الباب: من بياض عطاياكم في سواد مطالبنا ! فالهم ابو تمام الشطر الثاني من البيت فقال:

بياض العطايا في سواد المطالب «١»

وقال عنه ابن الاثير يصف الفاظه: كأنها رجال قد ركبوا خيولهم واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد «٢». وقد اطلع ابو تمام على انواع شتى من الصور الادبية في كلام العرب وحين رأى بشارا وابا نواس وابن الوليد، جروا على تميزها ، واستعملوها في شعرهم، تبين فكرتهم، وصهرها في بودقته، ثم ابرزها للناس بعد ان دبجها بزي بلغ غاية الصنعة في الحدود التي رسمها الشعر العربي للشعراء من قبل. وقد ابتدع ابو تمام نظرية جديدة في الشعر هي ان كل الفاظ اللغة من حقيقة ومجاز يصرفها بين يديه ويبتكر لغة مجازية لهذه اللغة التي سارت كأنها ملكة، وقد افسد هذا التعمل طائفة من شعره ولكنه وافق طبعه في كثير منه فادى الى احسن النتائج وافضلها «٣». ومن هنا لامه بعض العلماء وعدوا عمله عدوانا على اللغة ولكن الرجل لم يبال الابما صوره لنفسه وما اخذ يحققه من آمال وبينما كان الناس يحاورون في تفسير تفاعيله كان هو ماضيا يعمل بقانونه الخاص ويحيا لاجله ويكافح في سبيله. وما كاد الشاعر يحتل مكانه بين الشعراء ويقربه الخلفاء والامراء

---

(١) عبقرية ابي تمام؛ص ١٢١ -١٢٢ .

(٢) المثل السائر ،ص١٠٦ .

(٣) محمد مهدي البصير : في الادب العباسي ، ص ٢٢٣

ويذيع صيته، حتى كثر الخلاف حوله . ولم يكن ابوتمام ليهتم كثيرا بذلك لانه يعرف حق المعرفة انهم حساد لانقاد لأنه عرف كيف يصل ولم يعرفوا فانقطعوا. واصبحت العداوة لابي تمام بدعة العصر ، لان البعض كان يعتقد ان الرجل لايكمل ادبه الابالطعن على العلماء والجهابذة والوضع من ماضيهم والاستحقار لباقيهم «١».

وقد اسرفوا في ذكر عيوب الطائي بما يشبه التجني . فقد عابوه على اكثاره من الصنعة وعلى الفاظه واستعاراته ومجازاته وبديعه . والكثير من هذه العيوب لاتعد عيوبا اذا ما نظر اليها بمنظار النقد الموضوعي . فقد جاء في العمدة :

والعرب لاتنظر في اعطاف شعرها بان تجنس او تطابق او تقابل فتترك لفظة للفظة او معنى لمعنى كما يفعل المحدثون ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وابرازه واتقان بنية الشعر واحكام عقد القوافي . وتلاحم الكلام . واستطرفوا ماجاء من الصنعة نحو البيت او البيتين في القصيدة . يستدل بذلك على جودة الشعر وصدق حسه . وصفاء خاطره . فاما اذا اكثر ذلك منه ، فهو عيب يشهد بخلاف الطبع وايثار الكلفة «٢» .

وكان ابو تمام اكثرهم مخالفة للطبع وايثارا للكلفة فهو صاحب مذهب جديد . فقد كان شعره يصعب على رجل كثعلب . فكان يطلب ممن اطلع عليه ان يدرسه ثم يشرحه له «٣» فكيف بالقارىء الاعتيادي ؟ ! ولكن كتب البلاغة استعانت بشعر ابي تمام لتوضيح الموضوعات البلاغية بايراد امثلة من شعره ونجد ذلك كثيرا في كتاب المثل السائر لابن الاثير فقد استعان بقول ابي تمام :

قد بلونا ابا سعيد حديثـــا	وبلونا ابا سعيد قـديمـا
وورد ناه ساحلا وقليبــا	ورعيناه بارضا وجميمـا
فعلمنا ان ليس الا بشق النفـ	ـس صار الكريم يدعى كريما

---

(١) الصولي، ص٦ .
(٢) العمدة، ج١ص ٨٢ .
(٣) الصولي، ص١٤ .

يقول ابن الاثير : فالساحل والقليب يستخرج منهما تأويلان مجازيان «١».
الى اخر الحديث . واورد قول ابي تمام :

بالشعر طول اذا اصطكت قصائده في معشر وبه من معشر قصر

جاء به مثلا على التأويل بالمعنى «٢».

واستشهد بقوله :

كم صارم عضب اناف على فتى فهم لأعباء الوغى حمـــال
سبق المشيب اليه حتى ابتـزه وطن النهى من مفرق وقذال

فقد جاء بالبيت الثاني كمثال على اللفظة المناسبة في المكان المناسب «٣» .

واستحسن منه اخذه الكلمات من افواه الناس واستخدامها في الشعر «٤»
كما اخذ من شعره مثالا على الشعر الجميل الذي لايمكن ان ينثر اذ يعسر على الناثر تبديل الفاظه :

تردى ثياب الموت حمرا فما اتى لها الليل الا وهي من سندس خضر «٥»
واتخذه مثالا في تجديد المعاني «٦» .

كما انه لم يدع بابا من ابواب البلاغة الا استشهد بها بامثلة من شعره «٧» .
كما استشهد عبد القاهر الجرجاني في كتابيه ،دلائل الاعجاز واسرار

---

(١) المثل السائر ،ص٩٠-٩١ وكذلك ص١١٧ وكذلك في كتاب اسرار البلاغة للجرجاني ،ص٢٨٨ .
(٢) المثل السائر ،ص٨٤ .
(٣) المصدر السابق ،ص٩٨ ،٤٠٠ .
(٤) المصدر السابق ، ص١٠٤ .
(٥) المصدر السابق ،ص١٣٣-١٣٤ .
(٦) المصدر السابق ،ج٢ ص٧ .
(٧) المصدر السابق ص١٣٤ ، ٢٩٣ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ،٣٧٢ ،٣٧٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ ،٤١٤ ،ج٢ص٥٨ ، ٦١ ،١٠١ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٣ ، ٨٠ — ٨١ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٦٥ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ .

البلاغة ، بالكثير من شعره «١» .

وقد امتاز ابو تمام بحسن استخدامه للمعاني والالفاظ عن طريق المجاز والاستعارة والتشبيه . كقوله واصفا جنديا عباسيا :

خلط الشجاعة بالحياء فاصبحا كالحسن شيب لمغرم بدلال

وكقوله في تشبيه صورة بمعنى :

وفتكت بالمال الجزيل وبالصدى فتك الصبابة بالمحب المغرم

وهو فتك معنوي وهو الطف انواع تشبيه الصورة لانه نقل صورة الى غير صوره «٢» .

ومما اورده ابن الاثير من التشبيهات المركبة قول ابي تمام :

معشر اصبحوا حصون المعاني ودروع الاحساب والاعراض«٣»

ومن جمال قوله في مدح المعتصم :

جلا ظلمات الظلم عن وجه امة اضاء لها من كوكب الحق آفله

وقوله :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل ويكدى الفتى في دهره وهو عالم

ولو كانت الارزاق تجري على الحجى هلكن اذن من جهلهن البهائم

ومن استعاراته الجميلة :

ماضر اروع يرتمي في همه روعاء ان لايرتقي في سلمي

وكقوله :

ادنت نقابا على الخدين وانتقبت للناظرين بقد ليس ينتقد

وكقوله :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسر

---

(١) دلائل الاعجاز ص٣٣، ٣٤، ٤٠، ٥٣، ٧٢ ، ٣٣١-٣٢٢، ٣٢٦ : ٣٣٨، اسرار البلاغة ، ص٣٩، ٥٤، ٨٧، ٩٢، ٢٠٣، ٢٠٤ : ٢٢٨، ٢٣٤، ٢٨٨ .

(٢) ابن الاثير، ص١٣٠ .

(٣) المصدر السابق، ص١٣٨ .

وقوله :

وقد علم الافشين وهو الذي به يصان رداء الملك عن كل جاذب

وقوله :

وكم سرق الدجى من حسن صبر وغطى من جلاد فتى جليد

وكقوله :

ويضحك الدهر منهم عن غطارفة كأن ايامهم من حسنها جمع «١»

وقد عد الامدي : ان الزحاف ، واضطراب الوزن في بعض ابياته . واحتواء شعره على الحوشي والتعقيد وسوء النسخ وقبح الاستعارة والغموض والخروج على اللغة ، كل ذلك كان بسبب تصنيعه «٢» .

وقد ذكر صاحب الوساطة من استعاراته القبيحة :

باشرت اسباب الغنى بمدائح ضربت بابواب الملوك طبولا

وكقوله :

لها بين ابواب الملوك مزامر من الذكر لم تنفخ ولا هي تزمر«٣»

وقد اخذ عليه صاحب الموشح مآخذ كثيرة بسبب اهتمامه بالمحسنات .

وليس الغريب في شعر ابي تمام حاصلا من اللفظ الغريب والصور الجريئة وحدهما بل جاء من الاشتقاقات الجريئة التي تسمع لاول مرة فاذا احوجه الشعر الى مخالفة السماع خالفه بلامبالاة للقياس «٤» مثال ذلك قوله :

وتبسم العقل ابتسام اقاحه متزاهراً عن باكر الانــــداء

والشائع : اقاحيه .

وقوله :

بالقائم الثامن المستخلف اطأدت قواعد الملك ممتدا لها الطول

والصواب : اطدت .

---

(١) الوساطة ، ص٣٦

(٢) الامدي ، ص٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ؛ ١٨٠ : ١٥٨ .

(٣) الوساطة ، ص٣٦ .

(٤) عبقرية أبي تمام ، ص٧٤ .

وقد يأخذ لفظة اعجمية غريبة كقوله :

«كشخنتين على غير جرم» الى اخر البيت

و«كشخنتين» كلمة فارسية .

ومن اغرابه كثرة الاعلال، كقوله :

سقى الله من اهوى على بعد نائه واعراضه عني وطول جفائه

ولم يسمع ذلك عن «نأى» . وكثيرا ما ينقل اللفظ من معنى الى معنى مشابه توسعة كقوله :

ولا ترين البكـــى ســـبة والصق جوى بلهيب روائي

والرواء اصله للماء فاراد به اللهيب العظيم «١» .

ويعود ذلك الى اسباب، منها : محاولته توضيح المعاني العميقة التي يريدها وكثيرا ماتعجز اللفظة العادية عن ايضاحها ، او بسبب الحبسة التي في لسانه ، فقد كان يختار الالفاظ التي يستطيع نطق حروفها رغم غرابتها ، ويترك الالفاظ التي لايستطيع لفظ حروفها رغم سهولتها . كما كان صوته اجشا تناسبه الكلمات الضخمة الغريبة .

ويذكر ابن الاثير عن شعره في عرضه للخفيف الحسن قوله :

دار اجل الهوى عن ان ألم بها في الركب الا وعيني من منائحها

فقوله : عن أن ، فيهذا البيت من الخفيف الحسن «٢»

بينما يعدد عبد القاهر الجرجاني في دلائل الاعجاز ماثقل من لفظه في شعره «٣» .

ويؤكد هذا الرأي بطرس البستاني «٤» ، اذ يقول: من غريب اللفظ ووحشيه ،

---

(١) عبقرية ابي تمام، ص٧٤-٧٦ .

(٢) المثل السائر، ص٤٠٠ .

(٣) دلائل الاعجاز . ص٣٣-٣٤، ٤٠ .

(٤) ادباء العرب، ص١١٠ .

وشغف به وافرط في استعماله حتى تأبد اكثر شعره واخشوشن ، وسمج وقعه في الاذن ، فضاعت فيه معانيه الحسان . وفي هذا الرأي تجن وتهجم وعدم موضوعية في النقد،لان ابا تمام ابتكر افكارا وصورا جديدة وكان يحس دائما ان اللغة لاتستطيع ان تؤدي مايريد . وما اللغة ؟ أليست رموزا غامضة «١» ؟ ! .

وكما يقول الدكتور شوقي ضيف:لم يناقش النقاد شعر ابي تمام انما ناقشوه في اسلوب ملتو او عبارة غريبة او صورة غير مألوفة وانهم ناقشوا ظاهر العمل لاباطنه ، وما فيه من فلسفة وثقافة وتلون شعرى ويضيف الدكتور ضيف ان شعر أبي تمام خير مثل يصور ربيع الفكر العربي ومقدرته على الازدهار والاثمار ، كقوله :

ومعرس للغيث تخفق فوقه رايات كل دجنة وطفاء
نشرت حدائقه فصرن مآلفا لطرائف الانواء والانداء
فسقاه مسك الطل كافور الندى وانحل فيه خيط كل سماء «٢»

كما نجد عنده وفرة التأويلات لكثرة تعمقه بالتفكير والخيال وخروجه بصور متعددة كقوله :

ولهت فاظلم كل شيء دونها وانار فيها كل شيء مظلم

وقد اختلف الشراح في شرح هذا البيت . فاختلف المرزوقي «٣» عن التبريزي «٤» في شرحه .

كما كان للرمز اثر في الغموض الذي ساد شعر ابي تمام . وهو ناتج عن ثقافته الواسعة ، اذ امتزج الجانب العقلي في شعره بالتجسيد للصورة واعطائها البعد المادي والمعنوي . كقوله لابن ابي دؤاد :

(١) شوقي ضيف ،الفن ومذاهبه،ص٢٤١ .
(٢) المصدر السابق،ص٢٤٤-٢٤٥ .
(٣) المرزوقي ؛المشكل،ص٤١ .
(٤) التبريزي،ج١ص٣٦٠ .

يا ابا عبد الله اوريت زنـــدا في يدي كان دائم الاصلاد
انت جبت الظلام عن سبل الآ مال اذ ظل كل هاد وحـــاد
فنجح في الزناد الذي يكشف الظلمة . والامثلة كثيرة في شعره وهو يهتم بمعانيه اهتمامه بالفاظه .

ويذكر صاحب العمدة انه اكثر المولدين توليدا «١» .

وقد استطاع ان يستجمع اللفظ والمعنى . وسبق في ذلك من سبقه من شعراء عصره . فهو يأتي باللفظ حيث يقع المعنى مهما حدث من الصعوبة او الخفاء او الاشتباه كقوله :

كلف برب الحمد يزعم أنه لم يبتدأ عرف اذا لم يتمم
ففي كلمة «رب» اشتباه «٢» .

وقد استطاع ان يستمد لمعانيه اساليب بلغت غاية الروعة في المدح وحسن المدخل ومراعاة المناسبة واداء مايحب على شعر المدح في الاسراف في الغلو والمبالغة «٣» .

وهو كثيراً مايعمد الى اخفاء المعاني لينسجم مع الحضارة ومع العصر الذي يعيشه كقوله :

ولهت فاظلم كل شيء دونها واضاء منها كل شيء مظلم
فالبيت يحتاج الى استنباط . فالوله والظلام الذي ساد بينهما كان بسبب مانالة من الجزع لولهها فهي اذن تحبه . والامثلة على ذلك كثيرة «٤» .

وقد زاد في اخفائه للمعاني لجوؤه الى المعاظلة اللفظية والمعنوية . ومن معاظلاته المعنوية قوله في مدحه لخالد بن يزيد الشيباني :

ودعا فاسمع بالاسنة واللهى صم العدا في صخرة صماء

(١) العمدة ، ص٢٣١ .
(٢) عبقرية ابي تمام ، ص١٠٧ .
(٣) عبقرية ابي تمام ، ص١٠٨ .
(٤) عبقرية ابي تمام ، ص٨٣-٨٨ .

ولا يمكن فهم البيت الا بالتقديم والتأخير . فهو يريد ان يقول :

ودعا صم العدا في صخرة صماء   فاسمع بالاسنة واللهى

اما معاظلته اللفظية فتتم عن دخول الحرف على الحرف وتكرير الحرف المفرد في كلمات متتابعة وتتابع الصفات ثم كثرة الاضافات . وقد وقع ابو تمام في كل ذلك ، فقد ادخل الحرف على الحرف في قوله الى خالد :

الى خالد راحت بنا ارحبية   مرافقها من عن كراكرها نكب

ويرى ابن الاثير ان تضايف الحرفين من وعن ، كان مقبولا لولا اضافتهما لكلمة كراكر «١» . وامثال هذه المعاظلة كثيرة .

ومعانيه تتسع بالمدح ، وتدق في الحكمة ، وتهتم بالعلة والسبب . وتقذع في الهجاء ، وترق في الرثاء ، وعده البعض من اصحاب المذهب الشامي «٢» .

وقد جاء بوفرة المعاني في العبارة الواحدة كقوله يمدح :

بالشعر طول اذا اصطكت قصائده   في معشر وبه عن معشر قصر

ولا يخفى ان للبيت معنيين : ان الشعر يتسع مجاله بمدحك او ان الشعر يفخر بمدحك . وقد اكثر ابو تمام من الاستطراد والاستيعاب «٣» فقد اراد ان يهجو عثمان بن ادريس فمال الى فرس يصفه ثم عاد الى هجاء عثمان ويظن السامع انه يصف فرسا حتى يفاجئه بما يريد :

وسابح هطل التعداء هتان   على الجراء امين غير خوان

اظمى الفصوص ولم تظمأ قوائمه   فخل عينيك في ظمآن ريان

لو تراه مشيما والحصى زيم   بين السنابك من مثنى ووحدان

ايقنت ان لم تثبت ان حافره   من صخر تدمر او من وجه عثمان

---

(١) عبقرية ابي تمام ، ص٨٩-٩٣ .

(٢) انظر عمر فروخ : عبقرية ابي تمام ؛ البهبيتي ، ابوتمام ، امراء الشعر العباسي .

(٣) يقول ابن رشيق : الاستطراد هو ان يصف الشاعر شيئا ويريد غيره . فان قطع او رجع الى ماكان فيه فذلك استطراد – العمدة ج١ ص ٣١ .

وخير مثال على استيعابه «٥» قصيدته الهمزية التي يمدح بها محمد بن حسان الضبي فانه لم يأت بجواب رب التي هي في البيت الثالث الا في البيت السابع من القصيدة وقد اعانه الاستيعاب على ان يلم بالمعاني الماما سريعا «١» ، مما اظهر عنده الوحدة العضوية .

كما عمد الى التفصيل والتجزيء فاذا وصف الكريم وصفه بالجبل ثم يذكر القمة والسفح والهوة ومزالق الصعود ، كقوله يمدح :

ودان الجد اتاني عطاياه من عل ومنصبه وعر مطالعه جرد
فقد انزل المرتاد منه بماجد مواهبه غور وسؤدده نجد

وهو يكثر في معانيه من ذكر العلل والاسباب ويعود ذلك الى وفرة ثقافته كقوله :

ان شئت ان يسود ظنك كله فأجله في هذا السواد الاعظم

وقوله :

لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وهو يهتم في تجسيد معانيه ، واظهارها ، وكأنها تبدو حقيقة ملموسة . ومن جيد تصويره ، قصيدته في وصف الربيع :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسر
ياصاحبي تقصيا نظريكما تريا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه زهر الربى فكأنما هو مقمر

وقوله يصف مطرا في قصيدة مدح بها ابن الزيات :

ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لاعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب
لذ شؤبوبها وطاب ، فلو تسـ طيع قامت فعانقتها القلوب
فهي ماء يجري وماء عليه وعزال تنشا واخرى تذوب

(٥) الاستيعاب: هو ان يبتديء الشاعر بشيء ثم لايخبر عنه ولاينتهي عن الكلام فيه الا بعد امد طويل — عبقرية ابي تمام، ص١٤٢ .

(١) عبقرية ابي تمام ص١٤٢-١٤٣ .

كشف الروض رأسه واستسر الـ محل منها كما استسر المريب
ايها الغيث حي اهلا بمغـدا ك وحين السرى وحين تؤوب

ومن جيد تصويره قوله في احتراق جسد الافشين المصلوب :

ناراً يساور جسمه من حرها لهب كما عصفرت شق ازار
طارت لها شعل يهدم لفحها اركانه هدما بغير غبـار

وهو يضع الكلام في موضعه ، كما قال ابن رشيق في حديثه الذي مر بنا سابقا وهذا رأى ابن الاثير ايضا «١»

والتركيب عند ابي تمام قوية لتمازج اللفظ والمعنى ولكن تكلفه للمعاني البعيدة وغرامه بالصناعة وبحثه عن الكلام الغريب ادخلت على شعره شيئا من الغموض والتعقيد فجاءت تراكيبه معقدة احيانا كقوله :

خان الصفا اخ خان الزمان اخا عنه فلم يتخون جسمه الكمد «٢»

والذي يتملى ديوان ابي تمام ويسفر على تحليل معانيه يجد بدائع شعره مثل قوله :

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود

وقوله في سبيل بلوغ الارب :

ولكنني لم احو وفرا مجمعا ففزت به الا بشمل مبـرد

حتى يقول :

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فاني رايت الشمس زيدت محبة الى الناس ان ليست عليهم بسرمد

وقد شهد البلغاء لابي تمام بالتقدم في ذلك . قال ابن لاثير في كلامه عن المعاني التي تستخرج من غير شاهد الحال : «ان لانكارها سراً لايهجم على مكامنه الاجنان الشهم ، ولا يفوز بمحاسنه الا من دق فهمه حتى جل

---

(١) العمدة ،ج١ ص٨٧، المثل السائر ص٩٨،١٠٩،١٣٤،٤٠٠؛١٣١،ج١ص٧؛٥٨،٦١ .
(٢) عمر فروخ؛ابو تمام؛ص٧٩،الوساطة ،ص١٨؛سر الفصاحة،ص١٥١ .

عن دقة الفهم ثم يقول : « قد قيل ان ابا تمام اكثر الشعراء المتأخرين ابتداعاً للمعاني وقد عددت معانيه المبتدعة «أي التي لم يسبق اليها» فوجدت مايزيد عن عشرين معنى . واهل هذه الصناعة يكبرون ذلك . وما هذا على مثل ابي تمام بكثير » «١» . وقال ابو الفرج الاصفهاني : « وفي عصرنا هذا «القرن الرابع الهجري» من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف » «٢» بل هي التي دفعت ابا دلف العجلي ان يصيح وقد انشده ابو تمام قصيدته التي مطلعها :

على مثلها من اربع وملاعب   اذيلت مصونات الدموع السواكب

يامعشر ربيعة اما مدحتم قط بمثل هذا الشعر ، فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم يرمون بها اليه . فقال ابو دلف : فتقبلها منكم واعاركم لبسها ، وسأنوب عنكم في ثوابه . ثم امر له بخمسين الف درهم وقال : والله ما هي بازاء استحقاقك وقدرك فاعذرنا «٣» .

وقد كان ابو تمام يحسن صبغ صوره ويستعين بالتجسيد والتشخيص فقد جسم النأى والصدود حين قال لبعض ممدوحيه :

ومــن زمــن البستنيــه كأنه   اذا ذكرت ايامه زمن الورد

وكأن هذه الثياب الغريبة تشبه غرابة ثوب الزمن ، ومن هنا كثر نقد شعر ابي تمام ، لانه لم يسر على منوال الشعر القديم . وقد رد الدكتور شوقي ضيف الامدى ردا جميلا في كتابه الفن ومذاهبه «٤» وقال في مقارنته بمسلم وابن الرومي : فأن التصوير لم يستغرقهما على نحو استغراقه لابي تمام وان الانسان ليخيل اليه كأنما اصبح الشعر عنده ضربا من لوحات الرسامين فهو معني فيه دائما بالتصوير مشغوف بكل خيال نادر طريف «٥» .

---

(١) المثل السائر، ص١٩٣ .
(٢) الاغاني، ج١ص١٠٠ .
(٣) المصدر السابق، ص١٠٣ .
(٤) الفن ومذاهبه، ص٢٣٥–٢٣٩ .
(٥) المصدر السابق ، ص٢٣٩ .

ومن انسجام اللفظ والمعنى في شعر ابي تمام ظهرت عنده الوحدة العضوية فقد تزاوج حسه وعقله جميعا فالفكر والفن لا يفترقان، فهو يحس الجمال، ويتعمق بواطن الاشياء فالقصيدة بفضل الفكرة الجارية فيها ذات وحدة وتماسك تتلازم الفاظها مع معانيها فهو يقول عن فنه:

وكأنما نظم القوافي لؤلؤ اثبته في جندل منضود

والتسلسل الفكري في وحدة القصيدة لا يقف عند الحد المعنوي بل يتعداه الى الاثر اللفظي فهو لا يهتم بوحدة البيت كاسلافه، بل بوحدة القصيدة ككل، فقد يأتي مثلا بالمبتدأ في البيت، وبالخبر بعد ابيات كثيرة، لان التلاحق المنطقي والاقيسة المنطقية للمعاني في القصيدة يقتضي ذلك «١».

ويتعمق ابو تمام وراء الاشياء المادية ويتناول النفس والروح؛ كقوله:

تجد صلا تخال بكل عضو له من شدة الحركات قلبا

ويمتزج القياس المنطقي بالموسيقى والشعر والتصوير فتظهر وكأنها اقيسة فنية اذ يقول في الرثاء:

ان ريب الزمان يحسن ان يهدي الرزايا الى ذوي الاحاب
فلهذا يجف بعد اخضرار قبل روض الوهاد روض الروابي

كما عني بجمع الاضداد يقرب بينها ويراها في مظاهر الطبيعة وخوالج الفكر متعاكسة متنافرة ومجتمعة مترابطة وكانه قد اطلع على نظريتي هيكل وماركس القائلة بان التناقض هو السبب في تطور الاشياء «٢» كقوله:

مطر يذوب الصحو منه وبعده صحو يكاد من النضارة يمطر

ويقول ابن الاثير: وقد قيل: ان ابا تمام اكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعاني. وقد عددت معانيه المبتدعة، فوجدت ما يزيد على عشرين معنى. واهل هذه الصناعة يكبرون ذلك ثم يقول: فاما ما ورد لابي تمام:

---

(١) البهبيتي، ابو تمام، ص٢١٥-٢١٨ .

(٢) نديم عدي، تاريخ الادب العربي، ص٥٧ .

ـ يا ايها الملك النائي برؤيته وجوده لمراعي جوده كثب «١»
ليس الحجاب بمقص عنك لي أملا ان السماء ترجى حين تحتجب
ـ ولكن دارة القمر استتمت فدلتنا على مطر قريب
ـ واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
ومن قوله في الهجاء :
ـ وانت تدير قطب رحى عليا ولم ير لارحا العلياء قطبا
ترى ظفرا بكل صراع قرن اذا ما كنت اسفل منه جنبا
ـ لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس
ـ لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

وكثرت المعاني المخترعة عند ابي تمام وكما ان هذا التفكير الدائم والنظر في الاشياء والاحداث والعواطف ، جعل شعر ابي تمام مسرحا لمعان لم توجد في شعر غيره «٢» . وقد احسن ابو تمام في الابتداء والختام فقد سرد الحاتمي طائفة من ابتداءات ابي تمام وانتهاءاته ونماذج من حسن تخلصه ولطف اقتضابه وبراعة وصفه للقوافي فاستحسن ابتداءه اذ قال :

لا انت انت ولا الديار ديار خف الهوى وتقضت الاوطار

وزعم ان لن يستطيع احد ان يبتدىء بمثل ابتدائه حيث يقول :

ما في وقوفك ساعة من باس تقضي حقوق الاربع الادراس

وزعم ان ابا تمام هو الذى وصف القوافي بما لم يستطع احد وصفها به فقال :

جاءتك من نظم اللسان قلادة سمطان فيها اللؤلؤ المكنون
انسية وحشية كثرت بهـا حركات اهل الارض وهي سكون
ينبوعها خضل وحلي قريضها حلي الهدى ونسيجها موضون

(١) المثل السائر ص١٩٢ .
(٢) الهبيتي ، ابو تمام ، ص٢١٨-٢١٩ .

قد حاكها صنع الضمير بمده حب اذا نضب الكلام معين
اما المعاني فهي ابكـار اذا نضت ولكن القوافي عون «١»

وجاء في الوساطة: ان الشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة. فانها المواقف التي تستعطف اسماع الحضور وتستميلهم الى الاصغاء وقد ذهب ابو تمام والمتنبي في التخلص كل مذهب واهتما به كل اهتمام «٢».

وكان ابو تمام شاعرا ثائرا على عمود الشعر، اذ كان يتصيد المعاني ويلبسها الالفاظ، وكان ينصب القافية الى البيت ليعلق الاعجاز بالصدور. هذا ما قاله عنه صاحب العمدة، واضاف: وذلك هو التصوير في الشعر ولا يأتي به كثيرا الا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه «٣». وقال: كان ابو تمام على جزالته وتقدمه مقصرا في القطع من رتبة القصائد «٤» ويعزى ذلك الى اهتمامه بالمعاني اكثر من اهتمامه بأي شي اخر. وكان ابو تمام يعنى بتنقيح الابيات، وباللفظ وبالتركيب والايغال في التشبيه، والاستعارات الى ما يشبه الرمز، كما ذكرنا سابقا. كما يهتم بالغوص في المعاني. واقامة الادلة وضرب الامثلة، وادخال فنون العلم في الشعر. وكان يبطؤ في نظم الشعر ليقتنص المعنى البعيد او الاستعارة المتخيلة او التجنيس المطلوب كما يعنى بتهذيب شعره. وقد ذكر ذلك كثيرا في ديوانه كقوله :

ساجهد حتى ابلغ الشعر شأوه وان كان لي طوعا ولست بجاهد

ويعد ابو تمام من المجددين في الاوزان الشعرية فمن قوله في التجديد :

ثقيل ردف دقيق خصر شقيق شمس نشيج بـدر

وهذا بيت ليس من الابحر الستة عشر بل هو بحر جديد استحدثه ابو تمام«٥».

---

(١) زكي مبارك، الموازنة بين الشعراء، ص٣٨ .
(٢) الوساطة، ص٤٨ .
(٣) العمدة، ج١ص١٤٠ .
(٤) العمدة ج ١ص١٦٣ .
(٥) انظر البهبيتي، ابو تمام .

بينما ينكر خضر الطائي ذلك «١».

كما استحدث ابو تمام الموشح. فقد وردت لابي تمام ابيات فيها تقسيم يشبه ما ورد في الشعر الذي يعد طليعة للتوشيح قسم فيها ابو تمام الاشطر اقساما متساوية او شبه متساوية والتزم القافية في اخر كل جزء من اقسام الاشطر «٢»

كقوله:

يقول فيسمع ويمضي فيسرع ويضرب في ذات الاله فيوجع

وقوله:

انا الحسام انا الموت الزؤام انا الحرب الضرام انا الضرغامة العتد

وقوله:

ومن فاحم جعد ومن قمر سعد ومن كفن نهد ومن نائب ثمد

وينكر خضر الطائي انها من التوشيح وانها جارية على فني التسميط والتفويف وهما من فنون البديع «٣». ولا اجد في رأي خضر الطائي صوابا. اليس التقسيم المتساوي والتزام القافية الواحدة في كل جزء من اجزاء الشطر ضربا من التوشيح؟! ومن اين جاء التوشيح عند شعراء الاندلس اليس من التأثر المتجدد في المشرق.

وقد اخلص ابو تمام لشعره فقد استطاع بواسطته ان يحصل على المال، وان يبلغ المجد. فهو لا يمدح كرجل يجهل مقام فنه، ولم يتخذه اداة الى ممدوحيه، بل جعله مساويا حينا، واعلى منهم احيانا،«٤» ومن هذا قوله:

فدع ذكر الضياع فلي شماس اذا ذكرت وبي عنها نفار
وما لي صنيعة الا المكايا وشعر لا يباع ولا يعار
وما انا والعقار ولست منه على ثقة وجودك لي عقار

(١) خضر الطائي، ابو تمام، ص١١٩، ١٢٠ .

(٢) عمر فروخ، ابو تمام ص٩٦، البهبيتي، ابو تمام .

(٣) خضر الطائي، ابو تمام، ص١١٥-١١٦ .

(٤) عبقرية ابي تمام، ص٤١ .

وهكذا صار كثير من شعر ابي تمام قياسا يتألف من مخيلات تؤثر في النفس وقد فشا بعده في شعر العرب وان سبقه الى ذلك بشار ولكن ابا تمام اجاد فيه «١». وقد شرح الجرجاني في كتابه اسرار البلاغة مستشهدا بأمثلة لابي تمام في قوله:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكان العالي

في هذا الباب «٢». ومن ذلك قوله:

مطر يذوب الصحو منه وبعده   صحو يكاد من النضارة يمطر

وقوله في الشكوى:

ما زلت القي ذاك بالصبر لابسا   ردائيه حتى خفت ان يجزع الصبر

كل ذلك جعل ابا تمام يعطي القصيدة شكلها النهائي، اذ ختم الخصومة السابقة بخاتمة الذي اعطى القصيدة العربية طابعها المشبه، لان يكون ابديا. فكثيرا ما يفتتح قصائده بالغزل، ثم ينتقل من الغزل الى وصف رحلته الى ممدوحه فاذا انتهى الى الممدوح اخذ في مدحه وقد استحال هذا المدح على يده تصويرا للبطولة في عصره وكانت ابرز خلال الممدوح فيه قدرته في الحرب واصابته في الرأي فممدوح ابي تمام يرتسم امامك بطلا من ابطال القصص «٣».

اغراضه:

ومن هنا، ظهرت مظاهر جديدة في شعر ابي تمام هي الاهتمام بالتاريخ. لالتصاقه بالواقع والشعر الملحمي. فقد ارتبط شعر ابي تمام بالواقع ارتباطا قويا وهذه خاصة من خصائص الشعر العربي القديم فهو يحس الاشياء ويدركها ادراكا عميقا ويصفها وصفا ماديا بحيث لا يدع شيئا «٤». واحسن مثال

(١) المصدر السابق ص١٣٤ .
(٢) اسرار البلاغة، ص٢٣١ .
(٣) البهيتي. تاريخ الشعر العربي حتى اخر القرن الثالث الهجري ، ص١٩١-١٩٤ .
(٤) الرقوس، ص١٣٩، تاريخ الشعر العربي، ص١٩٤ .

على ذلك الشعر الجاهلي وشعر صدر الاسلام وشعر العصر الاموي في غالبه.

ولابي تمام دقة في الملاحظة ، وقدرة لغوية. تستوعب اكثر المفردات، وهي ومضات عجيبة من عبقرية هذا الرجل. وقد سماها ابن الاثير «الكلمات الجامعة» وضرب مثلا عليها قول ابي تمام:

سبق المشيب اليه حتى ابتزه وطن النهى من مفرق وقذال

فقوله «وطن النهى» من الكلمات الجامعة وهي عبارة عن الرأس ولايجاء بمثلها في معناها بما يسد مسدها. ويرى مارون عبود ان قوام فن ابي تمام هو منحه الحياة لما لا حياة فيه واسناد الشيء الى غير ما هو له اذ توغل في المجاز وابدع فيه لبعث الحياة في الصور كقوله:

نامت همومي عني حين قلت لها: هذا ابو دلف حسبي به وكفى

وقوله :

اعني افرق شمل دمعي فانني ارى الشمل منهم ليس بالمتقارب(١)

ومثل ذلك وصفه لحرق الافشين:

نارا يساور جسمه من حرها لهب كما عصفرت شق ازار

طارت لها شعل يهدم لفحها اركانه هدما بغير غبار

ومن روائعه في وصف المصلبين قوله:

بكروا واسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار

لا يبرحون ومن رآهم خالهم ابدا على سفر من الاسفار

ويقول ابن الاثير في اوصاف ابي تمام: وهذا الضرب ليبتدعه مؤلف الكلام من غير ان يقتدي فيه بمن سبقه وربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ويتبينه له عند الامور الطارئة (٢). «وللحلة السابرية» التي كساه اياها محمد ابن الهيثم ، ووصفه لقلم بن عبد الملك الزيات ، ووصفه الفرو ، ورثاؤه

---

(١) الرؤوس، ص ١٤٠ .

(٢) عبقرية ابي تمام ص ١٥٢ .

لابنه واخيه فكأنه كيان يشهد مرض ابنه ونزع اخيه ليلتقط ويصف «١» واصدق مثال على التصاقه بالواقع وصفه لفتح عمورية فقد نقل لنا شعر غزو المعتصم انتقاما لغارة تيوفيل الرومي على زبطره وتنكيله لها وسبي نسائها، وصراخ الهاشمية الاسيرة، ونهوض الخليفة من على عرشه، وهو يهتف: لبيك لبيك. الى اخر الواقعة، كل ذلك مسجل في القصيدة لا يعتمد على تخيل او ايهام وتمتاز قدرته هنا بالصياغة اللفظية ومثل ذلك قصيدته في صلب الافشين. ومن ذلك قصيدته التي مطلعها:

ارايت اي سوادف وخدود عنت لنا بين اللوى فزرود؟

وقد جمع له شارح همزياته جملة من هذه التاريخيات، وكانت هذه الطريقة وسيلة من وسائله للتقرب الى القبائل ونفوس ممدوحيه الذين يقصدهم بمدحه، ولعله كان يدرس هذه الاحداث قبل نظم القصيدة وينقحها ليبهر بها نفوس السامعين. حتى اعتبره البهبيتي مؤرخ عصره ومصوره فلم يقع حدث هام في تاريخ الامة الاسلامية الا سجله ابو تمام وتغنى به. فقد وصف هجوم ثغور المسلمين وغزو المأمون الروم وانقسام الناس على انفسهم حتى ان معظم شعره يتصل بالتاريخ اتصالا وثيقا «٢». ومثل ذلك رثاؤه لمحمد بن حميد الطوسي، ويطابق قول ابن الاثير في تاريخه الكامل «٣». ويقول البديعي: ان ابا تمام لما بلغه خبر قتله —محمد بن حميد الطوسي— غمس طرف ردائه في مداد ثم ضرب به كتفيه وصدره. وانشد القصيدة التي تمنى ابو دلف لو كان هو المقتول وقيلت فيه:

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر «٤»

الى اخر القصيدة.

وتظهر اثار حرب بابك الخرمي في شعره، والهمته هذه المواقع

---

(١) الروس، ص١٤٢.

(٢) البهبيتي، ابوتمام، ص٢١٢.

(٣) ابن الاثير ج٦، حوادث سنة ٢١٤ ص، قصيدة ابي تمام في تأبين هذا البطل العربي.

(٤) المصدر السابق، ص١٠٣، ١٠٤.

شعرا ظل يتردد زمنا بعد ذلك . ويقول البهبيتي : ان هذه الموقعة قد اعطت شعر ابي تمام لونا جديدا ذلك انشعر ابي تمام قبلها كان لا يكثر فيه وصف الحرب ، اما بعد هذه الموقعة فقد كثر كثرة جعلته من مميزات شعره .(١) وقد اصطبغ شعر ابي تمام بالدم لكثرة اهتمامه بوصف الحروب . واجمله ذلك الذي يصف فيه الخراب والحريق . وفي قصيدة فتح عمورية ، وحرق الافشين ، وحرب بابك الخرمي ، احسن الامثلة على ذلك . ومن هنا ، عد ابو تمام شاعر البطولة الاسلامية (٢) ولكنه كثيرا ما يلجأ الى الاساطير اليونانية القديمة في قصائده تلك . وذلك يعود الى ثقافته اليونانية . وقد عد البعض (٣) قصيدة فتح عمورية ملحمة اذ قال : لنأخذ الان مثلا على ملحمة عمورية التي خلدها ابو تمام في قصيدة لا تزال من عيون الشعر ، لا باعتبارها قصيدة في مدح الخليفة المعتصم ، والمدح اهون ما جاء فيها ، ولكن باعتبارها ملحمة تشرف على وصف المعركة وصفا حيا من بدئها الى منتهاها حتى خلصت الينا عملا فنيا رائعا متماسكا . ويستمر خليل الهنداوي في تحليل القصيدة ، وتتبع ابي تمام لاحداث المعركة . ويقارن بين ما قاله مؤرخو الروم ، وبين ما جاء في ابيات القصيدة ، من هدف واقعي للحدث التاريخي . ولكنه لم يستطع ان يبرهن على ان هذه القصيدة من نوع الملحمة الا في شيء واحد هو اعتمادها على البطولة والشجاعة في القتال . ويؤيد حنا الفاخوري رأي خليل الهنداوي اذ يعد قصيدة فتح عمورية وبعض ابيات اخرى تأتي في عرض مدائحه مثالا للشعر الملحمي في ادبنا لما فيه من تصوير واسع مهيب لاحداث خطيرة وخيال رحب يعتمد الواقع التاريخي ، ويتغنى بحرية في تفخيمه ، والتكيف به بالاضافة الى الفاظ فخمة هدارة واسلوب جزل تزخر فيه الصناعة اللفظية على مختلف ضروبها كما يغمر الانفعال النفسي في كل بيت من ابياته مما مهد السبيل

---

(١) البهبيتي ، المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٢) البهبيتي ، المصدر السابق ص ٢٢٥ .

(٣) خليل الهنداوي ، ملحمة عمورية ، مجلة العربي ، العدد ٧ سنة ١٩٦٥ .

للمتنبي «١» .
ولا نجد في هذا تبريرا كافيا لكون قصيدة عمورية من الشعر الملحمي ولكن يمكن ان نعتبر هذا النوع من الشعر ضمن الشعر القصصي، لا في وصفه للمعارك فقط انما في تصويره لممدوحيه اذ تستحيل صورة الممدوح بطلا من ابطال الملاحم التي حرم منها الادب العربي. كما يفعل ذلك في طريقة هجائه وهو يعمد الى التاريخ، ليقتبس منه، ومن الحاضر ليلبسه روح العصر كما في مدحه المعتصم بعد اخذ بابك اذ قال :

آلت امور الشرك شر مآل ‏ ‏ ‏ وامر بعـــد تخمط وصيال

فالقصيدة مثل جيد من القصص الشعرى العربي، اذيذكر فيها قصة ثورة بابك وهزائمه وصراعه بدون كذب او غلو. وبحدود ما ذكرته كتب التاريخ. وكما جاء في كتاب ابن الاثير . ويرى البهبيتي ان الرجوع الى القصيدة للمقارنة بينها وبين التاريخ هو خير ما يعمل في مثل هذه الحرب «٢» .
وهذا ما فعله في مدح ابي سعيد محمد بن يوسف وفي رثائه لمحمد بن حميد الطوسي .
ومن الفنون المهمة التي شاعت في شعرابي تمام المديح والرثاء ووصف الطبيعة. فقد تقدم في وصف الطبيعة على الاشارات العابرة التي وصفها ابو نواس، فقد استحالت عند ابي تمام الى نظرات تأملية فلسفية كما فعل في وصف الربيع :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر ‏ ‏ ‏ وغدا الثرى في حليه يتكسر

وكثيرا ما يمزج الطبيعة بمظاهر الحياة وبرؤيته الخاصة واصداء نفسه :

غنى فشاقك طائر غريـــد ‏ ‏ ‏ لما ترنم والغصون تميـد «٣»

ومن مظاهر وصف ابي تمام للطبيعة دقةالملاحظة في الموصوف. ونقل الواقع المحسوس لكل جزئياته وتفاصيله، بالاضافةالى التأمل الفكرى. واسبار غور

---

(١) حنا الفاخوري، تاريخ الادب العربي، ص٤٩٨ .
(٢) البهبيتي، ابو تمام، ص١٣٨ .
(٣) تاريخ الشعر العربي ، ص٥٠١، ٥٠٢ .

الاشياء المحسوسة، واستخراج معانيها، ورموزها وهو لا يقف عند الظاهر المحسوس بل يتخطاها الى الاعماق عن طريق المجاز والمحسنات البديعية كقوله :

دنيا معاش للورى حتى اذا حل الربيع فانما هي منظر

وقد شغل ابو تمام في المديح فلا يكاد يغفل احدا من علية القوم الا ويسرع لمدحه، حتى بلغ عدد ممدوحيه نحوا من ستين شخصا، وكان ينظر الى ممدوحيه نظرة جدية يعرف بواسطتها كيف يحصل منه على ما يريد. فقد اتصل ابو تمام بالمأمون، والمعتصم، والواثق، والمستعين، من الخلفاء. كما مدح عبد الله بن طاهر وخالد بن يزيد الشيباني،والي الموصل،في أيام المأمون ومدح ابنه محمدا والحسن بن رجاء ومحمد بن حسان الضبي الجواد ومحمد ابن عبد الملك الزيات واحمد بن ابي دؤاد وكان يعرف انهما خصمان متنافسان فجعل يتردد بينهما بمدائحه لينتفع بعداوتهما «١». وقد تبدو عقدة الفقر واضحة في انتهازيته، وفي اتصاله بممدوحيه فقد جعل ابن ابي دؤاد وسيلته الى المعتصم حتى اذا كان المعتصم في آخر ايامه حثه على ان يبايع لابنه الوثاق. وقد عرف ان ذلك يرضيه، فمهد لنفسه بذلك عند الواثق «٢» وفي اتصاله بابي سعيد الطائي ذكر صلته به ونسبته الى طي «٣». وامثال ذلك كثير. وكان يصطنع الكبرياء احيانا، ليؤثر ذلك في اعلاء مقامه، ومن ذلك ما قيل انه لم ينحن على الف دينار التي نثرها عبد الله بن طاهر ولعل مقابلة ابي العميثل له ونثر الدنانير بالصورة التي نثرت عليها كان السبب في استعلائه وتكبره عنها. وقال صاحب الاغاني عن ابي تمام: انه كان يعرف كيف يصرف مدحه فلم ينتفع في ايامه شاعر بدرهم «٤». ويمتاز مديحه بالاشادة بالقومية العربية والدين الاسلامي وقد اعجب ذلك بني العباس لاحتفاظه بحبه آل البيت، كما

---

(١) تاريخ بغداد،ج٨ص١٤١ .
(٢) اعيان الشيعة،ج١٩ص٢٥٥ .
(٣) المصدر السابق،ص ٢٧٧ .
(٤) المصدر السابق،ص٣١٦ .

في مدحه المأمون، ومدحه الواثق، وابي سعيد الثغرى، بعد وقعة بابك، واستخدامه للحوادث القديمة والحديثة، اذ كانت لها علاقة بالممدوح من قريب او بعيد، ليرفع بها مرتبته كما فعل في مدح ابي دلف العجلي، ومحمد ابن عبد الملك الهاشمي، وخالد بن يزيد الشيباني، واستطاع ان يحتفظ بمنزلته ومكانته، امام ممدوحيه، دون ان يحط منها، في اطار من فخامة الالفاظ والتراكيب، واعمال الفكر بما يستمده من ثقافته الواسعة وحكمته التي خبرها وعاشها «١»، فاذا لم تنفع الحيلة في فتح الابواب لابي تمام، لجأ الى العتاب، او الهجاء، كما فعل مع مالك بن طوق حين حجبه فكتب اليه لائما متهكما، يقول :

مالي ارى القبة البيضاء مقفلة دوني وقد طال ما استفتحت مقفلها
اظنها جنة الفردوس معرضة وليس لي عمل زاك فادخلها «٢»

وقد تناول الشاعر بهجائه نحو عشرين شخصا، منهم ستة اشخاص كان قد مدحهم، منهم عياش بن لهيعة الذى هجاه هجاءا مقذعا وقد اختصه باثنتي عشرة قطعة من المديح «٣».

وقد يكون هجاؤه عنيفا تارة، ورفيعا مترفعا في عتاب تارة اخرى ؛ فيه سف وخيبة امل. اما رثاؤه فزاخر بالعاطفة. ويظهر فيه ابو تمام رقيق الحس ينفث حسراته في عبارات فخمة جميلة يعبر عنها بالمجاز والاستعارات والكنايات. وقال ابو القاسم الامدى : هو اشعر الناس في المراثي وليس له اجود واحسن من قوله :

الا ان في كف المنية مهجة تظل لها عين الالى وهي تدمع
هي النفس ان تبك المكارم فقدها من بين احشاء المكارم تنزع «٤»

---

(١) الاغاني، ج١٥ص٩٨ .
(٢) عمر فروخ، ص١١٤-١٢٢ .
(٣) عبقرية ابي تمام، ص٣٠، ٣١ .
(٤) عمر فروخ، ابو تمام ، ص١٣١.

واجود رثائه رثاء بني حميد الطوسي ففيها تظهر انسانية الشاعر واخلاصه ووده .

كما تغلب الجزالة والرصانةوالصناعة اللفظية على مراثيه وقد تبدو احيانا عواطفه مزيفة ولكنها في كثير من الاحيان تصدر من الاعماق الحزينة الآسية.

وقصائده في الفخر قليلة يبدى فيها اعجابه بعقله ونفاذ بصره، وقدرته على احتمال الصعاب، كما يفخر بقبيلة طي، وهو في فخره يشكو من قسوة الحياة والامها، وليست له قصائد فريدة في هذا الباب «١».

وحكمة ابي تمام تصرفات عقلية في المعاني التي يطرقها والتي تأتيه عن طريق تجاربه في الحياة ونظرته اليها، واخذ كل ذلك من ثقافته، واطلاعه وكثرة تجواله والمامه بعلوم عصره «٢». كل ذلك يكسوه بما اوتي من صنعة وقابلية لفظية وغوص في المعاني كقوله:

قد تألف العين الدجى وهو قيدها ويرجى شفاء السم والسم قاتل

وكقوله:

واى فتى ينقاد للحلم امره واكثر رشدا الى الغي قائده

وقوله:

والحظ يعطاه غير طالبه ويحرز غير مجتلبه

وكقوله:

اولى البرية طرا ان تؤاسيه عند السرور الذى آساك في الحزن
ان الكرام اذا ما اسهلوا ذكروا من كان يألفهم في الموطن الخشن «٣»

اما زهديات ابي تمام فهي قليلة ويقول حنا الفاخوري :تتجلى نفس ابي تمام عميقة الاحساس في زهدياته شديدة التأثر بالحالات النفسية الجدية، وانها على قلتها تصور بامانة نفس الشاعر الكثيرة الامال والمطامح، وقد ظفرت

---

(١) الثعالبي، الاعجاز والايجاز، ص٨٧، خاص الخاص، ص٩٦ .
(٢) عمر فروخ، ابو تمام، ص١٣٦
(٣) محمد كرد علي، امراء البيان، ج١ ص٢٦١ .

ببعض رغائبها وغرقت في طلبها الى حد الافراط ثم رأت كل شيء ينها، ويزول مع تقدم السن والشيب ولا يدع اثرا غير الاسف «١». ولم يكن ابو تمام زاهدا زهدا ينبعث من نفسه وروحه فلم تخل زهدياته من ماديات الحياة وانما طرق هذا الباب بالوجه الذي دعته اليه الصنعة «٢».

ويؤكد عمر فروخ ذلك الرأي اذ يقول: فاذا رأينا زهدا لابي تمام فليس معنى ذلك انه تزهد فهو لم يبلغ السن الذي تلجيء الانسان الى ان يحاسب نفسه على اعماله السالفة وليس لابي تمام في هذا الباب جيد ولا جديد. واما الابيات الستة والاربعون التي اثبتها الخياط فهي ركيكة جدا لا يعقل ان تصدر عن مثل ابي تمام كقوله:

فلا بد يوما ان تصير لحفرة باثنائها تطوى الى يوم تنشر «٣»

ولا تتفق سيرة ابي تمام وحبه لماديات الحياة والنواحي الروحية التي تنبعث في نفس الزهاد وتبعدهم عن سفاسف الحياة وتمنيهم بجنة عرضهاالسموات والارض.

اما غزل ابي تمامفهو قليل كان يتكلفهفي اول قصائدهلا عن عاطفة، بل عن تقليد احيانا، وعن صنعةفي احيان اخرى،وله مقطوعات صغيرة قلما تجاوز الواحدة منها بضعة ابيات وهي ومضات انسانية عابرة حيث تمحي اثار التكلف والصنعة «٤» ،فترق الالفاظ وتعذب الاوزان مع هدوء واستقرار .وسبب ذلك يعود الى مادية ابي تمام وحبه للمحسوسات لا للروحيات وايمانه بالجسد لا بالروح . ولم يعرف ابو تمام بحبيبة لها اسم معين «٥»، واغلب غزل ابي تمام في الغلمان ولكنه لم يتهتك تهتك ابي نواس، ولم يتعهر فلم يرو له

(١) حنا الفاخوري ، تاريخ الادب ، ص٤٩٦.
(٢) خضر الطائي : ابو تمام ص٧١.
(٣) عمر فروخ ، ابوتمام ، ص ١٤٢.
(٤) حنا الفاخوري ، تاريخ الادب العربي ، ص٤٩٤.
(٥) عمر فروخ ، ابوتمام ، ص١٣٦.

من فاحش القول غير شيء قليل «١».

ولكن ابن المعتز روى في طبقات الشعراء، عن الحسن بن رجاء الضحاك قال: كنا مع امير المؤمنين المعتصم بالرقة، فجاء ابو تمام، وانا في حراقتي، فجعل ينشدني ويلتفت الى الخدم والغلمان الواقفين بين يدي، ويلاعبهم ويغامزهم– وكان الطائي من اكثر الناس عبثا ومزاحا– فقلت له : يا طائي قد ظننت انك ستصير الى امير المؤمنين، مع الذي ارى من جودة شعرك، فانظر: انك ان وصلت اليه لا تمازح غلاما ولا تلتفت اليه، فانه من اشد الناس غيرة، واني لا آمن ان وقف منك على شيء ان يأمر غلمانه فيصفعك كل واحد منهم مائة صفعة. فقال: اذا اخرج من عنده ببدر مملوءة صفعا. «٢»

وله في العيافة والزجر ابيات قليلة يسخر فيها من العيافة اذ يقول:

اتضعضعت عبرات عينك ان دعت ... ورقاء حين تضعضع الاظلام
لا تنشجن لها فان بكاءها ... ضحك وان بكاءك استغرام
هن الحمام وان كسرت عيافة ... من حائهن فانهن حمام «٣»

وقد صنف ابو بكر الصولي كتابا جمع فيه اخبار ابي تمام وشعره، وتصرفه في انواع علومه، ومذاهبه. واستدل الصولي على ما وصف عن ابي تمام بما يوجد من شعره من ذلك قوله في صفة الخمر:

جهمية الاوصاف الا انهم ... قد لقبوها جوهر الاشياء «٤»

وذهبوا في تعليل جوهر الاشياء مذهبا فلسفيا.

وحكي عن بعض العلماء بالشعر انه سئل عن ابي تمام فقال: كانه جمع شعر العالم فانتخب جوهره «٥» ويؤكد المسعودي ان لابي تمام اشعارا حسانا

---

(١) بطرس البستاني، ادباء العرب ص٩٥ ، حنا الفاخوري، تاريخ الادب العربي، ص٩٤؛
(٢) طبقات الشعراء ، ابن المعتز، ص٢٨٣.
(٣) زهر الاداب ، ص٥٠٢.
(٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ص٧٤،٧٥.
(٥) المصدر السابق ، ص٧٤.

ومعاني لطافا واستخراجات بديعة «١».

ويقول مارون عبود: ان ابا تمام هو من الشعراء المحككين من السلالة الزهيرية المتحدة الجذور والفروع في الادب العربي، ولو لم يقل الشعر في المواضيع الجديدة التي اشرنا اليها، لما كان الا شاعرا مداحا نواحا كما قال فيه ابن عمه البحتري «٢».

وقد توفي ابو تمام في الموصل سنة احدى وثلاثين ومائتين للهجرة. وبنى عليه احد بني حميد الطوسي قبة خارج الميدان «٣». ويشك البهبيتي بأنه قد مات شابا ويعتمد على قول ابن خلكان في تعليقه على قول من قال: انه مات وقد نيف على الثلاثين سنة بقوله: هذا يخالف ما سيأتي من تاريخ مولده ووفاته ثم يذكر بعد ذلك سني مولده وتختلف الروايات في مولده ووفاته ويخمن البهبيتي بانه مات كهلا «٤».

وقد رثاه الكثير من الشعراء وجاء في كتاب اخبار ابي تمام للصولي قوله: حدثني محمد بن خلف قال: حدثني هارون بن محمد بن عبد الملك قال: لما مات ابو تمام قال الواثق لابي: قد غمني موت الطائي الشاعر «٥».

---

(١) المصدر السابق ؛ ص٧٤.
(٢) مارون عبود ، الرؤوس ص١٤٤.
(٣) محمد محيي الدين عبدالحميد ، شرح ديوان ابي تمام ، ص٨.
(٤) البهبيتي ، ابو تمام الطائي ، ص٦٠.
(٥) اخبار ابي تمام ، ص١٧٢.

شعر ابي تمام في ميزان النقد القديم

الدكتور سالم الحمداني

نشر يسير به شعر يهذبه   فكر يجول مجال الروح في البدن

« ابو تمام الطائي »

اذا فتشت عن ازدهار الادب العربي فما عليك الا ان تقرأ لشعراء القرنين الثالث والرابع الهجريين، فلا اخال الا انك واجد بغيتك في شعر مسلم وابي تمام والبحتري والمتنبي وغيرهم، وان اردت ان تظفر بحركة نقدية خصبة فاقرا ما اثاره النقاد حول شعر هؤلاء، ولااخالك ايضا الا واجدا ما تريد فيما شغل به النقاد انفسهم منذ القرن الثالث الهجري حتى هذا اليوم.

ولست ارى حركة اخصب ولا اروع ولا اوسع من تلك الحركة التي اثارها شعر ابي تمام، لقد شغل شعر الرجل المشرق الاسلامي كما شغل مغربه وانهمك الكتاب والنقاد في دراسة هذا الشعر وكان نتاج ذلك حركة نقدية خصبة لم تشهدها كل عصور الادب من قبل.

ومن هنا، كان شعر ابي تمام مثار حركة نقدية لا تزال اصداؤها تعكس آراء النقاد. منذ القرن الثالث الهجري حتى عصرنا هذا. ولئن احتفظ تاريخ الادب العربي، منذ ذلك العهد، بنتاج نقدي ضخم اثاره مذهب ابي تمام فذلك لا يعني ان حركة النقد حول هذا الشعر قد اكتفت بما تركت من تراث نقدي اصيل ولا يعني ايضا ان تلك الحركة النقدية الواسعة قد اتت على كل ما

في شعر الرجل من روعة وابداع فلا زال شعر الشاعر يوحي باروع الخطرات النقدية لدى النقاد ولا زال النقاد حتى هذا العصر يجدون فيه مجالات نقدية يستطيع كل عصر ان يضيف الى ما سبق وان ينقد بروح العصر نفسه ما كان على بقية العصور من قبله، ذلك ان شعر ابي تمام يخفي بين طياته من الافكار والمعاني والصور ما يجعل اثره يمتد الى ابعد العصور .

ولسنا نريد ، هنا، ان نبحث عن تاريخ النقد من خلال شعر ابي تمام ولكننا نريد ان نضع شعر ابي تمام في ميزان النقد القديم لندرس الاثار التي تركها في ذلك النقد ولنتعرف على مذهب الرجل من خلال تلك الحركة النقدية الواسعة التي اثارها شعره .

ان اية دراسة عصرية لشعر ابي تمام لا بدلها، في راينا، ان تاخذ بنظر الاعتبار نقطتين في غاية الاهمية :

الاولى : ثقافة ابي تمام التي تتصل بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام والتاريخ وغير ذلك مما انعكس اثره في شعره بل وجه فنه في كثير من الاحيان وهذا يفيدنا في انصاف الرجل مما اثاره حوله نقاد عصره . ومن اجل ذلك خاصموه وانتقصوا من قيمة شعره .

وثانيتهما : ان نفهم روح العصر الذى عاش فيه ابو تمام لنرى هل كان شعره يتلاءم مع التيار الادبي العام الذى كان يترسمه العلماء والادباء والنقاد؟ وهذه النقطة تفيدنا في الحكم على الذين نقدوا شعره، فخاصموه في مذهبه. وفيما يخص هذه الناحية، فالمعروف ان اشد الناس نقدا للشعر هم الرواة واللغويون ثم الشعراء «١» وقد كان اكثرهم لا يتصلون بالثقافة الحديثة، فكرهوا الحديث على هذا الاساس واحبوا ما اتصل بعامود الشعر العربي وآثروه على ما يتصل بعمود الفلسفة والثقافة الحديثة فهؤلاء كانوا يترصدون للشعراء ويراقبون شعرهم ليروا الى اى حد كان هؤلاء الشعراء يخضعون لقواعد الشعر وقواعد اللغة؟ فاذا ما شذ شاعر عن تلك القواعد، صار في نظرهم خارجا عن طريقتهم

---

(١) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٤٠ .

وصار شعره شاذا نابيا عن ذوق العصر وطريقته، وفي مثل هذه الحال يصير الشاعر هدفا للخصومة، ويتعرض شعره للنقد والتجريح .

وعلى العموم، فان جميع النقاد القدماء من لغويين ونحويين ورواة لم يستسيغوا من الشعر ما خرج على روح العصر، ولم يقبلوا ما نبا عن الذوق العام الذي الفوه وتعودوه، ومن هنا، كانت خصومتهم لشعر ابي تمام وهو دون ريب قد كسر الطوق الذي اعتمدوه اساسا لذوقهم. وخرج على ما اعتادوه من شعر سهل ومطبوع، يفهم دون اعمال فكر او اجهاد عقل، او غوص الى الاعماق .

ومن هنا، وقفوا لابي تمام بالمرصاد وخاصموه وتعصبوا عليه، بل تعدوا الى اكثر من هذا حين رفض بعضهم كثيرا من شعره. ولكن يجب الانتصور ان هذا الموقف من جانب الخصوم كان سببه فن ابي تمام وخروجه على قواعد النظم المألوف، فان بعضهم، وخصوصا الشعراء، كانت تدفعهم الغيرة لمخاصمته. لان ابا تمام لم يكن شاعرا عاديا، يأخذ مكانه من الشهرة كما يأخذون، ولعل الاهم من ذلك ان الشعر كان مصدر رزق لكثير من الشعراء، فكان وجود ابي تمام يسبب ضيقا لهؤلاء لان الواحد منهم لم يكن ليستطيع الحصول على ما يريد في حضور ابي تمام. من ذلك ما اورده صاحب الاغاني من ان «١» « احدا ما كان يقدر ان يأخذ درهما بالشعر في حياة ابي تمام، فلما مات اقتسم الناس ما كان يأخذ » .

ومهما تكن اسباب الخصومة لابي تمام، فان عدداكبيرا من نقاد الشعر ورواته قد اججوها حملة شعواء على الشاعر، فمنهم من كان يدفعه حقده وكراهيته كدعبل بن علي الخزاعي، فقد كان يدفعه حسده لان يخاصمه، بل يرفض شعره. ويقول حين سئل عنه : «٢» لم يكن ابو تمام شاعرا انما كان خطيبا وشعره بالكلام اشبه منه بالشعر. وذكر محمد بن داود

---

(١) الاصفهاني، الاغاني، ١٥/٩٨ .

(٢) الصولي، اخبار ابي تمام، ص ٢٤٤ .

ان دعبلا كان يميل عليه ولم يدخله في كتابه « كتاب الشعراء » ومن هؤلاء الخصوم كان ابن الاعرابي اللغوى المشهور. فقد كان هذا شديد الحملة عليه، بسبب خروجه على كثير من قواعد اللغة. وكان يقول عنه: « ١ » « ان كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل ».

ويبدو ان علماء اللغة كانوا من اشد خصوم شعر ابي تمام. ولذلك لم تشفع له عندهم مئات من قصائده وفرائده، كانوا هم انفسهم يعجبون بها على انها لغيره، فاذا احسوا انها لابي تمام، صبوا عليها جام غضبهم. وغيروا فيها رأيهم. فقد « ٢ » « حدث عبد الله بن المعتز قال: حدثت ابراهيم بن المدبر ورايته يستجير شعر ابي تمام ولا يوفيه حقه، بحديث حدثنيه ابو عمر بن ابي الحسن الطوسي وجعلته مثلا لهم قال: وجه بي ابي الى ابن الاعرابي لاقرأ عليه اشعارا، وكنت معجبا بشعر ابي تمام. فقرأت عليه من اشعار هذيل، ثم قرأت ارجوزة ابي تمام على انها لبعض شعراء هذيل

وعاذل عذلته في عذله فظن اني جاهل من جهله

حتى اتممتها فقال: اكتب لي هذه. فكتبتها له ثم قلت: احسنة هي ؟ قال: ما سمعت باحسن منها. قلت: انها لابي تمام. فقال: خرق خرق ».

ويظهر من هذا النص ان ابن الاعرابي هذا لم يطعن في القصيدة، بل اعجب بها، الا ان بغضه لابي تمام هو الذى دفعه الى هذا الفعل. ولو اننا حاولنا ان نضع مثل هذا التصرف في اى ميزان نقدى سليم، لما حكمنا على الرجل الا بالتعصب والحقد.

على ان بعض الخصوم لم يكن يدفعهم غرض الى رفض شعر ابي تمام، سوى تعصبهم للقديم، وخروج ابي تمام عليه، وكسره طوقه. من هؤلاء نذكر الاصمعي اللغوى والراوية الثقة المشهور. فقد جاء في الموازنة ان « ٣ » « اسحاق بن ابراهيم الموصلي انشد الاصمعي:

---

(١) المصدر نفسه، ص ٣٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٣) الامدي، الموازنة ص ٢٣.

هل الى نظرة اليك سبيـــل فيروى الصدى ويشفي الغليل
ان ما قل منك يكثر عنـدي وكثير ممن تحب القليـــل

فقال الاصمعي: لمن تنشدني؟ فقال: لبعض الاعراب. قال: والله هذا هو الديباج الخسرواني. قال: فانهما لليلتهما. فقال: لا جرم والله ان اثر الصنعة والتكلف بين عليهما».

ولسنا نريد، هنا، لان نتعرض الى اخبار هؤلاء الخصوم، فهي كثيرة جدا. ولكننا نذكر منهم ابراهيم بن المدبر وابا سعيد المكفوف، وعبد الصمد ابن المعذل وديك الجن وابن الخثعمي والقاسم بن مهرويه وهؤلاء الذين اشرنا اليهم كلهم من نقاد القرن الثالث، اي انهم عاصروا ابا تمام، او عاشوا في عصره، فمنهم من دفعه حرصه على مذهب العصر الى خصومة ابي تمام، وهم الشعراء ومنهم من خاصمه لحسده له على مكانته وشهرته. ولا شك ان الامثلة التي ضربناها لندل بها على خصومة هؤلاء لشعر ابي تمام، تدل على ان النقد على هذا العصر يشوبه التأثر الشخصي والنقد الذاتي الذي لا يخضع الى موازين النقد البناء.

على اننا اذا اجتزنا هذا القرن الى غيره من القرون، خصوصا القرن الرابع الذي استوت فيه اضخم عملية للنقد العربي المنهجي، وجدنا الناحية التأثرية، والنزعة الشخصية تخف الى حد بعيد. ولعل مرد ذلك هو ان نقاد القرون التالية هؤلاء، قد بعد العهد بينهم وبين ابي تمام، اي زالت الاسباب الشخصية التي توفر عليها النقد في القرن الثالث.

ومن ناحية اخرى، فان عملية النقد قد استوى عودها، واستقر امرها الى حد بعيد، بفعل استواء الحضارة وتطورها وتقدمها. اي ان روح العصر كادت ان تتقبل مذهب ابي تمام او على الاقل لم ترفضه بل تناقشه وتنقده وترده الى اصوله، وتربط ما بينه وبين ثقافة العصر، وتعلل فتقبل او ترفض. وهذا ما وجدناه عند اكثر النقاد الذين عرفتهم كل عصور الادب، من مثل الامدي صاحب كتاب الموازنة، رغم ما نشم في رائحة نقده من تعصب

على ابي تمام في كثير من الاحيان. ولكننا لا نجد ما وجدناه من ذلك التعصب الذي الفيناه عند دعبل. او ابن الاعرابي. ولعلك تعجب بنظرة الامدي حيث يقول: «١» «فان كنت– ادام الله سلامتك– ممن يفضل سهل الكلام وقريبه. ويؤثر صحة السبك وحسن العبارة، وحلو اللفظ، وكثرة الماء والرونق. فالبحتري اشعر عندك ضرورة. وان كنت تميل الى الصنعة والمعاني الغامضة. التي تستخرج بالغوص والفكرة، ولا تلوى على غير ذلك. فابو تمام عندك اشعر».

ويأتي بعد الامدي بالاهمية، علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة. فهو وان كان يفضل المتنبي على غيره. الا ان نقده لابي تمام في بعض الاحيان لا ينبع من كره او تعصب. وانما ينطلق من منهج سليم يعترف بالفضل ان كان للفضل موقع في نفسه. فقد جاء في الوساطة بعد نقد شعر ابي تمام، وتفضيل شعر المتنبي عليه: «٢» «ولست اقول هذا غضا من ابي تمام ولا تهجينا لشعره ولا عصبية عليه لغيره. فكيف وانا ادين بتفضيله وتقديمه. وانتحل موالاته وتعظيمه. واراه قبلة اصحاب المعاني. وقدوة اهل البديع ؟».

اما ابو هلال العسكري، فقد خالف ابا تمام في قضية المعنى. فهو ناقد بلاغي، ثم هو ممن يرون ان الاهتمام باللفظ اولى من الاهتمام بالمعنى. اذ «٣» «ليس الشأن في ايراد المعاني. لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وانما هو في جودة اللفظ. وصفاته وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب. والخلو من اود النظم والتأليف».

ومن هنا، فهو يناقض ما يذهب اليه ابو تمام من اهتمام بالغ بالمعنى. ولكن اختلافه مع ابي تمام لم يؤد به الى تعصب كذلك الذي الفيناه عند نقاد القرن

(١) المصدر نفسه، ص ١٤.
(٢) الجرجاني: الوساطة، ص١٩.
(٣) ابو هلال العسكري: الصناعتين، ص٥٧.

الثالث. فابو تمام في نظره «١» «قد جنى على نفسه بالاكثار من هذه الاستعارات، واطلق لسان عائبه، واكد لهم الحجة على نفسه».

والواقع ان شعر ابي تمام لم يكن على وفاق مع مذاهب النقاد البلغاء، لان شروط هؤلاء في الكلام، واهتماماتهم بالالفاظ. وشروطهم في المعاني. التي لا يتوفر عليها شعره، كل ذلك جعلهم يزورون عنه ازورارا، بل يميلون عنه الى غيره.ومع هذا، فاننا لا نجد روح الغضب والحقد في خطراتهم النقدية.

من هؤلاء، مثلا، الباقلاني، وهو ناقد من نقاد القرن الخامس. تراه يقول في حكمه على فن ابي تمام: «٢» «فهذا وما اشبه انما يحدث من غلوه في محبة الصنعة، حتى يحجبه عن وجه الصواب. وربما اسرف في المطابق والمجانس، ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها، حتى استثقل نظمه واستوخم رصفه، وكان التكلف باردا، والتصرف جامدا». وقريب من رأي الباقلاني رأي ابن سنان الخفاجي ايضا.

هذا كله عن الخصوم اما عن الانصار، فلا شك ان ابا تمام قد ترك اثارة الطيبة في نفوس اولئك الذين اتصلت ثقافتهم بالفكر العميق، وعقولهم بالفلسفة والمنطق، ولا شك اعجب به اولئك الذين تطرب نفوسهم الى الاستعارات البعيدة والتشبيهات الجديدة.ومن هنا، اعجبوا بشعر ابي تمام، وباركوا له صنيعه، ووقفوا ينافحون عن مذهبه، ويردون الطعون الى خصومه. فهذا محمد بن يزيد المبرد يدافع عن فن ابي تمام، ويسفه خصومه اذ يقول «٣» «ما يهضم هذا الرجل حقه، الا احد رجلين، اما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام، واما عالم لم يتبحر شعره ولم يسمعه».

وشهادة المبرد دون شك لها شأنها عند اصحاب اللغة والنحو والنقد.

وهذا الحسن بن وهب من القرن الثالث ايضا يعجب بشعر ابي تمام، فيقدمه على القدماء والمحدثين ويقول: «٤» «واما الشعر فلا اعرف مع كثرة

---

(١) المصدر السابق: ص٣٠٦ .

(٢) الباقلاني: اعجاز القرآن، ص١٦٦ .

(٣) الصولي: اخبار ابي تمام، ص٢٠٤ .

(٤) المصدر السابق، ص١٠٩ .

مدحي له وشغفي به، في قديمه وحديثه، احسن من قول ابي تمام في المعتصم، ولا ابدع معاني، ولا اكمل مدحا، ولا اعذب لفظا ثم انشد.
فتح الفتوح تعالى ان يحيط به نظم من الشعر او نثر من الخطب
ثم اخذ يروي القصيدة، فلما فرغ منها قال: «هل وقع في لفظة من هذا الشعر خلل؟ كان يمر للقدماء بيتان يستحسنان في قصيدة فيجلون بذلك، وهذا كله بديع جيد».

ولا شك ان في كلام الحسن بن وهب هذا انفاسا نقدية جديدة لم نألفها عند القدماء. وقد نبه هو اليها حين قال: «كان يمر للقدماء بيتان ....الخ». وهو يشير بذلك الى الخطرات النقدية القديمة التي كانت تتسم بالسرعة والفردية والذاتية البعيدة عن النظرة الشاملة الدقيقة ..

وكان ممن فضله من نقاد القرن الثالث. علي بن الجهم وعمار بن عقيل؛ وابن الرومي، ومحمد بن عبد الملك الزيات، ومحمد بن حازم الباهلي، «١»؛ وغيرهم.

واذا تجاوزنا ذلك الى القرن الرابع وقفنا امام حشد كبير من النقاد الذين اعجبوا بشعر ابي تمام وشغفوا بمذهبه الجديد. ويطالعنا من هؤلاء نقاد لهم وزنهم لافي تاريخ النقد فحسب، بل في تاريخ الشعر والكتابة، وكل فنون الادب، من امثال: ابن جني وعلي بن عيسى الرماني، والخالديين، والحاتمي وابن العميد والصاحب بن عباد والمرزباني. وحتى الجرجاني فهؤلاء كلهم اكبروا الى حد بعيد ماذهب اليه ابو تمام في فنه الجديد.

ودليل اعجاب هؤلاء بشعره أن بعضهم تقدموا لشرحه. وبعضهم الاخر قام بشرح حماسته. من ذلك ماقام به ابن جني حين الف كتابه «التنبيه في شرح مشكل ابيات الحماسة» وكتابه الاخر «المبهج في شرح اسماء رجال الحماسة» ثم «المشكل في شعر ابي تمام» وهذا دليل على اهتمام الرجل بشعر هذا الشاعر. وقريب من ذلك ما قام به علي بن عيسى الرماني حين شرح

---

(١) انظر: الصولي، اخبار ابي تمام.

حماسته . ودافع عن سرقاته . اما الخالديان «١» فانهما اعجبا بشعر ابي تمام . ولذلك تعمدا ايراد الكثير من شعره وكانا يتعهدان كل بيت من أبياته او معنى من معانيه ، بما يستحقه من الثناء بالعبارات المعبرة عن الاعجاب ويبدو ان ابا العلاء المعري كان معجبا هو الاخر بشعر ابي تمام . فقد مدحه في رسالة الغفران «٢» «لانه كان صاحب طريقة مبتدعة ومعان كاللؤلؤ ، مستنبعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من المحار ...

وقد علق الدكتور ربداوي على ذلك بقوله : مااظن ان ناقدا لخص مذهب ابي تمام باوجز مما ذكره المعري» . حتى صاحب الاغاني ، فانه يشيد بشعر ابي تمام ،و يكبر علمه . ويعجب من فضله ،وقد وقف يسفه اولئك الذين طعنوا بشعر ابي تمام ، ويصفهم بالجهل والحماقة اذ يقول: «٣» «واقوام يتعمدون الرديء من شعره ، فينشرونه ، ويطوون محاسنه ، ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك ، ليقول الجاهل منهم : انهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه الا بادب فاضل وعلم ثاقب » .

ويلاحظ ان النقد منذ نهاية القرن الرابع الهجري ، بدأ يتحول الى نقد بلاغي . يعتمد في اساسه على دراسة اعجاز القرآن . ولذلك وجدنا المتأخرين من نقاد هذا القرن اكثرهم من البلغاء . من امثال: العسكري والرماني . وصار نقدهم للشعر يدور حول قضايا اللفظ والمعنى في اكثره .

وتبعهم في ذلك نقاد القرن الخامس ، وعلى رأسهم ،الباقلاني وعبد القاهر . ولذلك وجدنا اكثر النقاد من البلاغيين يقفون ضد ابي تمام في فنه، خصوصا منهم انصار اللفظ ، كابي هلال العسكري وابن سنان الخفاجي. ولذلك وجدنا عبدالقاهر يقف من ابي تمام موقفا وسطا «٤» «فهو لا يقف موقف اللائم المؤنب لابي تمام الا عندما يراه ساعيا وراء اللفظ . واما في حوكه

---

(١) محمود ربداوي، الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ،ص٢٩٦ .
(٢) المصدر السابق،ص٤٢٤ .
(٣) الاصفهاني : الاغاني، ج١٦/٣٨٣ .
(٤) محمود ربداوي : الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام،ص٣٧٩ .

للمعاني . فانه يبارك عمله ويستشهد بصنيعه على المستحسن منها . وخاصة في احكام ابي تمام للمعاني وتركيزه للافكار على شكل حوكه» . وطالما اننا قد ذكرنا ابن سنان كواحد من نقاد شعر ابي تمام، وهو واحد من رجالات القرن الخامس فمن المهم ان نشير الى ، نقاد هذا القرن الذين كان نقدهم امتداداً لكثير من نقد القرن الرابع ولا اعتقد انني ابالغ في هذا القول حين اتذكر من هؤلاء النقاد: المرزوقي والعميدي والشريف المرتضى. وهؤلاء كلهم كانوا انصارا لابي تمام ، ودعاة لشعره الجيد . ويكفي ان يكون المرزوقي وحده حاملا للواء فن ابي تمام. فهو من اشهر من ارتبطت اسماؤهم بهذا الشاعر في شرحه لحماسته ولذلك وجدنا الدكتور ربداوى يقول فيه : «١» «ان المرزوقي كان خير من تصدى لشرح دقائق ابي تمام وغامضه . وكان خير من نقد فن ابي تمام ودافع عنه » .

اما الشريف المرتضى فقد كان من اشد المتحمسين لابي تمام ، ولمذهبه وقد وقف يرد على كل الذين تصدوا لشعر هذا الشاعر . ودافع بحرارة لاتهمد.

ومن المهم، ونحن نتعرض لاتجاهات هؤلاء النقاد، ان نشيد بجهود النقاد المغاربة الذين ساهموا في اكبر عملية نقدية اثارها مذهب هذا الشاعر . وابرز مايطالعنا من اسماء هؤلاء : ابن رشيق صاحب كتاب «العمدة» والحصري صاحب كتاب «زهر الاداب» . وكلا الناقدين كان معجبا بفن ابي تمام ، ونصيرا لاتجاهه . وقد استشهد كل منهما بشعر الشاعر في كلامهما على الشعراء المحدثين .

واذا كنا قد اشرنا الى ان هؤلاء النقاد قد انقسموا الى انصار وخصوم . فذلك لايعني ان اتجاهات النقد حول شعر ابي تمام كانت حدية الى هذه الدرجة فتاريخ الحركة النقدية يحتفظ لنا باسماء وقفت موقفا وسطا من شعر ابي تمام فقد ذكر الصولي «٢» «ان ابا حاتم السجستاني انشد شعرا لابي تمام ،

---

(١) المصدر السابق : ص٤١٨ .

(٢) الصولي : اخبار ابي تمام، ص٢٤٤ .

فاستحسن بعضه واستقبح بعضه . وجعل الذي يقرؤه يسأله عن معانيه فلا يعرفها ابو حاتم فقال : ماشبه شعر هذا الرجل الا بثياب مصقلات خلقان ، لها روعة وليس لها مفتش» .

وهذا ايضا «١» عبد القاهر لم يبرم البرم كله لدقيق معاني ابي تمام ولا لغامض افكاره ، وانما يشدد نكيره عليه لتعسفه في اللفظ ،لان اللفظ ليس ما يرفض عبد القاهر » . وهذا الامدي شيخ النقاد – وهو ممن اتهموا بالتعصب على ابي تمام – يكتب في فضل الشاعر «٢» :

«وجدت اهل البصرة من اصحاب البحتري ، ومن يقدم مطبوع الشعر دون متكلفه ، لايدفعون ابا تمام عن لطيف المعاني ودقتها ، والابداع والاغراب فيها ، والاستنباط لها ، ويقولون :انه وان اختل في بعض مايورده فان الذي يوجد فيها من النادر المستحسن، اكثر مما يوجد من السخيف المسترذل» .

وليس من ذكرنا من هؤلاء المعتدلين وحدهم من وقفوا هذا الموقف الوسط ، فان كثيرين ممن خاصموا ابا تمام في شعره قد شادوا بجيده خصوصا مالا يتعارض وذوقهم واتجاههم. وكثيرون ممن تعصبوا له وناصروه وقفوا يعنفونه وينقدون شذوذه ، ويأخذون عليه اغرابه وشذوذه . ومن هنا كان حكمنا على كثير من نظراتهم النقدية حكما يشهد لهم بالحذق ، وقوة الملكة وجودة الذوق. بقي علينا، وقد انهينا اتجاهات النقاد في شعر ابي تمام،ان نتعرف على ما هو اهم ... وذلك هو جانب التطبيق العملي لهؤلاء النقاد . اي ماهي ابرز القضايا النقدية التي اثاروها حول شعر ابي تمام ؟ .

شغل النقد العربي منذ اقدم عصوره بقضية اللفظ والمعنى . ولازالت هذه المسألة تستحوذ على نقدنا الحديث فلا ينفك نقادنا المحدثون عن الحديث عما يسمونه الان الشكل والمضمون .

وانقسم النقاد مابين مؤيد للفظ كالجاحظ وابي هلال العسكري وابن سنان الخفاجي وغيرهم وما بين مفضل للمعنى ، كعبد القاهر والمعري والشريف

(١) محمود ربداوي: الحركة النقدية،ص٣٧٦ .

(٢) الموازنة: الامدي ، ص٣٩٧ .

المرتضى ، واغلب الذين انتصروا لمذهب ابي تمام .

المعاني :

وقد جاء انشغال النقاد بمعاني ابي تمام امرا طبيعيا دون شك ، لان اشهر ما اشتهر به هذا الشاعر هو عنايته بدقة المعاني وتوليدها وغرابتها وعميقها .

هذه القضايا التي اشتهر بها مذهب ابي تمام . ولقد ادرك النقاد هذا منذ عهد الشاعر نفسه فحين «١» « سئل البحتري عن نفسه وعن ابي تمام قال : كان اغوص على المعاني مني وانا اقوم بعمود الشعر منه» . اما صاحب الاغاني فيصفه بانه : «٢» «شاعر مطبوع لطيف اللفظة دقيق المعاني ، غواص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره» . وهو في رأي ابن الرومي «٣» شاعر يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لاتى بها»

وحين سئل ابن المعتز عن رأيه في البحتري قال : «٤» «فاما ان يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات ، بل يغرق في بحره» ولخص ابن عماد الحنبلي رأيه في ابي تمام ، مستنداً على كلام ابن الاثير ، فقال : «٥» «امابو تمام فرب معان وصيقل الباب واذهان . وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على اثر فهو غير مدافع عن مكانة الاغراب الذي يبرز فيه على الاضراب ... فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه اطاعته اعنة الكلام» .

فابو تمام اذن–باعتراف الجميع – له السبق على غيره في معاني الشعر ولكن هذا لا يعني ان النقاد قد سلموا له بالقيادة في هذا المجال . ذلك ان مذهب الشاعر في المعاني كان غير مذهب القوم . ومن هنا اثارت هذه القضية نقاشا طويلا استغرق مايقرب من خمسة قرون اي منذ القرن الثالث حتى القرن السابع ولازال اثر ذلك يمتد الى هذا العصر .

---

(١) الامدي: الموازنة ١٢/١ .
(٢) الاصفهاني : الاغاني ، ٩٦/١٥ .
(٣) ابن رشيق : العمدة، ١٣٢/١ .
(٤) ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص٢٨٦ .
(٥) ابن عماد الحنبلي : شذرات الذهب، ص٧٢ .

ولعل نقاد هذا العصر اقرب الى طبيعة معاني ابي تمام . فمفاهيم نقدنا المعاصر في مراعاتها لظروف البيئة وثقافة الشاعر واباحتها لحرية الفنان وحرية تعبيره . ثم ما وصل اليه النقد من تطور ونضوج ، كل ذلك جعل نقادنا المعاصرين يباركون مذهب ابي تمام في معانيه . بل ادى بهم الى ان يفتحوا مع القدماء باب المناقشة فاذا هم، في اغلبهم، انصار لمذهب الشاعر بل متعصبون لمسلكه «١» .

الاغراب:

واول ما اثاره النقاد القدماء بشأن معانيه مسألة الاغراب والتعقيد والغموض . وقد اعتبر الامدي ذلك مأخذا على الشاعر واستشهد على ذلك في ماذكره من ان «٢» « ابن الاعرابي كان شديد التعصب عليه ، لغرابة مذهبه ولانه كان يرد عليه معانيه ما لايفهمه ولا يعلمه . فكان اذا سئل عن شيء منها يأنف ان يقول : لا ادري فيعدل الى الطعن عليه » . ولعل قصة ابي العميثل الذي قال لابي تمام بعد سماعه احدى قصائده : لم تقول من الشعر مالا يفهم؟ فرد عليه ابو تمام : ولم لا تفهم مايقال ؟اشهر من ان ينبه عليها .

والواقع ان قضية الاغراب في شعر ابي تمام لم تكن مأخذا يحتج به خصوم ابي تمام فحسب ، فحتى انصاره يشيرون الى ذلك في كثير من الاحيان ، فقد ذكر الصولي وهو من اشد انصار ابي تمام ان : «٣» « ابا حاتم السجستاني انشد شعرا لابي تمام فاستحسن بعضه واستقبح بعضا . وجعل الذي يقرؤه يسأله عن معانيه فلا يعرفها ابو حاتم . فقال : ماأشبه شعر هذا الرجل الا بثياب مصقلات خلقان لها روعة وليس لها مفتش » .

واذا كان المتحاملون قد خاصموا ابا تمام بسبب غموض معانيه ، بل

---

(١) انظر بشأن ذلك: شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، وعمر فروخ : ابو تمام ونجيب البهبيتي، حياته وحياة شعره .

(٢) الامدي، الموازنة، ١ / ٢٢ .

(٣) الصولي : اخبار ابي تمام، ص٢٤٤ .

اسقطوا شعره ايضا ، فان نقاد اخرين لم يروا في ذلك هنة كبيرة تستوجب مثل هذا الحكم ، فالجرجاني صاحب الوساطة ، يرجح هذا الموقف ويرى ان الغموض مسألة اعتيادية فيقول : «١» «وليس في الارض بيت من ابيات المعاني لقديم او محدث الاومعناه غامض مستتر . ولولا ذلك لم تكن الاكغيرها من الشعر . ولم تفرد فيها الكتب المصنفة ، وتشغل باستخراجها الافكار الفارغة ، ولعله اراد بذلك ان يرد على الذين اسقطوا بتلك الحجة كثيرا من شعر ابي تمام «٢» : «ولو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعرا لوجب الا يرى لابي تمام بيت واحد. فانا لانعلم له قصيدة تسلم من بيت او بيتين قد وفر من التعقيد حظهما ، وافسد به لفظهما ، ولذلك كثر الاختلاف في معانيه» .

واما نقادنا المحدثون فلم يروا في هذا التعقيد مايشين شعر الشاعر ، بل ان اكثرهم حكموا على هذا الاغراب والتعقيد بالفتنة والروعة . وهذا شوقي ضيف يتحدث عن ابي تمام فيقول : «٣» «فهو يطلب الاغراب في فنه حتى يسبغ على شعره كل مايمكن من ايات الفتنة والروعة» بينما يرى انيس المقدسي : «٤» «ان من يطالع ديوانه فانه قد يقف حائرا امام طلاسمه وغموض معانيه ، حتى اذا راضت له بالدرس والتفكير رأى فيها مايلذه من صور جميلة ومعان رشيقة» .

وفي ظني ان اولئك الذين عابوا على الشاعر غرابة معانيه وغموضها ، لم يدفعهم الى ذلك الموقف جهل بتلك المعاني ، وانما الذي دفعهم الى مثل ذلك هو ان الشاعر خرج على مألوف القوم في ايراد المعاني ، وتمثل فيها ثقافته الواسعة المتشعبة ، التي لما تستقر في اذهانهم وعقولهم . ودليل ذلك انهم كانوا يستسيغون شعره على انه ليس له ، فاذا كشفوا حقيقة قائلة غيروا رأيهم فيه . .

---

(١) الجرجاني : الوساطة ، ص٤٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٤٣٠ .

(٣) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص٢٢٦

(٤) انيس المقدسي : امراء الشعر في العصر العباسي ، ص٢٠٧

كما اننا لانرى ان ابا تمام يتعمد ذلك الاغراب تعمدا ، ولا كان يقصده قصدا ، وانما تلك الغرابة،في رأينا ، كانت تنهال عليه من روافد ثقافته الواسعة ، التي هضمها الشاعر كما لم يهضمها أي شاعر اخر .

واكثر هؤلاء النقاد تتبعا لاخطاء ابي تمام في المعاني هو الامدى،فقد انفق في ذلك اربع عشرة صفحة من كتابه «الموازنة» . ولقد وفق الامدى في كثير مما اخذه على ابي تمام كتعليقه على قول الشاعر في باب الفراق : «١»

«دعا شوقه ياناصر الشوق دعوة فلباه طل الدمع يجرى ووابله

فقال الامدى في ذلك : اراد ان الشوق دعا ناصرا ينصره فلباه الدمع . بمعنى انه يخفف لاعج الشوق ويطفي حرارته . وهذا انما هو نصرة للمشتاق على الشوق . والدمع انما هو حرب للشوق لانه يثلمه ويتخونه ويكسر من حده» .

والواقع،ان ،الامدى وفق كل التوفيق في معرفة خطأ المعنى في هذا البيت رغم ماينتحله البعض له من اعذار ، حتى ان هذا التوفيق قد دعا الدكتور محمد مندور لان يقول : «٢» : « لايتم هذا فقط عن ادراك للمعاني ومعرفة في تصريف الالفاظ وانما هو يظهر فطنة صادقة ومعرفة بالنفوس تستحق الاعجاب » .

الا ان التوفيق لم يحالف الامدى مااخذه من هذا الجانب على ابي تمام فقد كانت تخونه الحجة ويضعف عنده التحليل احيانا ، من ذلك ما خطأ فيه ابا تمام في قوله «٣» :

ظعنوا فكان بكاى حولا بعدهم ثم ارعويت وذاك حكم لبيد
اجدر بجمرة لوعة اطفاؤها بالدمع ان تزداد طول وقود

فيعلق على ذلك بقوله : « وهذا خلاف ما عليه العرب وضد ما يفرق من معانيها » .

ولا شك ان ابا تمام كان يدرك ان ذلك مما ليس تعتاده العرب ، ولا مماوقع

(١) الامدي: الموازنة، ٩٠/١ .
(٢) محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب، ص ١١٨ .
(٣) الامدي : الموازنة ٢، ١١٩/٢ .

في شعرهم ، ولكن ذلك فرضه عليه عقله ، وسعة ثقافته ، وعمق تفكيره ، الذي صار يخالف تفكير الكثيرين ممن عاصروه ، فنقدوه . ومن ذلك ماخطأ فيه الامدى الشاعر بقوله :

وهو اكثر النـاس اغضـاء على نائـل لـه مسروق

فقال عمر فروخ معلقا على موقف الامدى : «١» « وكل مافي الامران الامدى لم يتعود ايضا ان يرى النائل «العطاء» مسروقا . ان مايكون مسروقا في رأيه هو المال المغصوب » وهو في الواقع تصريف خطأ من جانب الامدى لان قصد ابي تمام، على اغلب الظن، ان الممدوح يسرق ماله بعلمه لشدة كرمه وعطائه . وهذا مالم يتحمله عصر الامدى .

وقد كانت كثير من المعاني التي ناقشها النقاد القدماء على انها اخطاء من جانب ابي تمام ، مثار جدل عنيف ، افاد حركة النقد العربي ، ككثير من من القضايا الاخرى التي خلفت لنا تراثا نقديا واسعا .

ولعل هذه الاهمية تبرز في دفاع انصار الشاعر عما اتهمه به الخصوم .فقد كان الشريف المرتضى من المتحمسين لابي تمام ووقف يرد على كثير مما اتهم به الشاعر فقد جاء في اماليه «٢» : « ومن عجيب الامور ان ابا العباس احمد بن عبيد الله بن عمار ينشد هذه الابيات المفرطة في الحسن في جملة مقابح ابي تمام ، وما خرجه — بزعمه — من سقطه وغلطه . ويقول في عقبها :

ولم يسمع بشعر وصف فيه مصلوب باغث من هذا الوصف ، والابيات هي :

مازال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى
صلى لها حيا وكان وقودها ميتا ويدخلها مع الكفـار

وليت من جهل شيئا عدل عن الخوض فيه والكلام عليه . فكان ذلك اولى به . وابيات ابي تمام في نهاية القوة ، وجودة المعاني والالفاظ وسلامة السبك

(١) عمر فروخ : ابو تمام، ص٥٤ .
(٢) الشريف المرتضي : غرر الفوائد، ٢٤٩/٢.

واطراد النسج .... الخ » .

وواضح ان عقلية العصر لم تتحمل معاني ابي تمام كما كان يريد ، ولذلك وجدنا النقاد يقلد بعضهم بعضا ويستعير بعضهم اراء البعض الاخر .

ولعل هذا البيت الذي استعار فيه ابو تمام لباس الصوف للزمان — وهو بيت جميل دون ريب — قد جعل اغلب النقاد ينكرون عليه مافيه من معنى فاعتبروه خطأ لايحتمل النقاش والبيت هو قوله :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

وقد علق عليه المرزباني في موشحه فقال : « ١ » « وقد تقدم انكار الناس هذا البيت قبلي لما بين نصفيه من التباين في الاساءة والاحسان » .

بينما نجد الكثيرين ينكرون على الشاعر استعارته الجميلة في الشطر الثاني .

وهو بلا شك مالم تتحمله عقولهم ولا ثقافتهم ، التي تخالف ثقافة ابي تمام .

بعد الاستعارة :

ومما يتعلق بالمعنى ماأخذه النقاد القدماء على ابي تمام من بعد الاستعارة ، وخصوصا الامدي الذي وضع حدودا للاستعارة حين قال : ان القدماء يستخدمونها « ٢ » « فيما يقارب المشبه ويدانيه ، او يشبهه في بعض احواله او يكون سببا من اسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي . استعيرت له وملائمة لمعناه » ومن هنا فقد وضع القدماء انفسهم في قوالب معينة لم يستطيعوا ان يفكوا انفسهم من اسارها ، بل لاحقوا كل من يخرج على هذه القوالب .

ولهذا كان واضحا ان يرفضوا اكثر استعارات ابي تمام ، لانهم لم يتقبلوا ان يكون للدهر حواش زاهية مشرقة ، ولم يتصوروا ابدا ان يستعار للثرى صفة العروس التي تزهى بحليها وزينتها في قول ابي تمام :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسر

---

(١) المرزباني : الموشح ، ص٢٨٢ .

(٢) الامدي : الموازنة ، ١/١٠٧ .

ومن هنا كانت حملة الامدى وغيره على استعارات ابي تمام . فاذا به ينهال على استعاراته ذما وتقبيحا وكان من جملةما وصف به استعاراته « المرذول والقبيح والرديء والفاسد والبعيد » وهذا دون شك ظلم في حق شاعر كان يريد ان يتطور في الصورة الشعرية فيتصور الاستعارة بغير مايتصورها هؤلاء الذين سدوا عليه منافذ الخيال و بعد التفكير .

وكان مما اتفق على ذمه اغلب القدماء قول ابي تمام :

فضربت الشتاء في اخدعيـــه ضربة غادرته عودا ركوبا

وقوله :

يادهر قوم اخدعيك فقــد اضججت هذا الانام من خرقك

وقوله :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكانما لبس الزمان الصوفا

فهم لم يتصوروا ابدا ان يشبه الزمان بالانسان فيكون له اخدع ، ولم يستسيغوا ان يكون له رداء ، وان يلبس الصوف كما يفعل الانسان . او بالاحرى كما يقول شوقي ضيف وهو يشير الى الامدى ، لم يستسيغوا هذه الاستعارات « ١ » « لان فيها الاستعارة المكنية التي يرى فيها خروجا على عمود الشعر العربي » .

والواقع ان الامدى لم يكن وحده حامل لواء هذا الرأى ، بل كان وراءه اغلب النقاد وخصوصا منهم البلاغيون الذين رسموا حدودا معينة للاستعارة .

ولذلك وجدنا ابا هلال العسكرى يذم استعارات ابي تمام هذه يعيبها عليه ويضرب امثلة لهذه الاستعارات المسرفة في رأيه فيقول : « ٢ » « وقد اكثر ابو تمام من هذا الجنس اغترارا بما سبق منه في كلام القدماء ، مما تقدم ذكره فاسرف . فنعي عليه ذلك وعيب به . وتلك عاقبة الاسراف ، فمن ذلك قوله :

---

(١) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص٢٣٧ .

(٢) ابو هلال العسكري : الصناعتين ، ص٣٠٣ .

يادهر قوم اخدعيك فقد اضججت هذا الانام من خرقك
وقوله :
كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا
وقوله :
فضربت الشتاء في اخدعيه ضربة غادرته عودا ركوبا

ثم قال بعد ذلك : وقد جنى ابو تمام على نفسه بالاكثار من هذه الاستعارات واطلق لسان عائبه ، واكد له الحجة على نفسه .

اما الباقلاني فيعلق على البيت الاخر بقوله «١» : « فهذا وما اشبهه انما يحدث من غلوه في محبته الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب » .

ونحن لا نشك ان في مثل هذه الاستعارات غرابة على عصر ابي تمام ولكن هل من لوازم الفن والنقد ان نقول للشاعر الذي تتدفق منه هذه الصور وتتمثل في شعره مثل هذه الاستعارات التي تدل على سعة ذهنه وعمق فكره : قف مكانك والتزم حدود العصر في صوره وفي استعاراته وفي ذلك جناية على الادب قبل ان يكون ظلما للاديب نفسه ؟ !

ولكن هذا لا يعني ان القدماء كلهم نهجوا هذا المنهج في رفض استعارات ابي تمام وتقبيحها، فان اخرين وقفوا مع ابي تمام يشدون على يده ويفسرون مذهبه في استعاراته . من ذلك البيت الذي قال فيه ابو تمام :
شاب رأسي ، ومارأيت مشيب الرأس الا من فضل شيب الفؤاد
وقد قال فيه الجرجاني في وساطته : « ٢ » « وهذا مما استقبح من استعاراته » ويقصد استعارة الشيب للفؤاد وقد فسر عمر فروخ كلام صاحب الوساطة بقوله : « ٣ » «ولعل الجرجاني قد اتى في ذلك من استغراب نفر من جلساء احمد بن ابي دؤاد لهذا البيت.... قال بعضهم : وكيف يشيب الفؤاد... وقد صرف التبريزي البيت اذ قال فيه : اي ما شبت للكبر انما للهموم»

(١) الباقلاني : اعجاز القرآن ،ص١٠٨ .
(٢) الجرجاني : الوساطة ،ص٢٥٠ .
(٣) عمر فروخ : ابو تمام ،ص٦٢ .

ولا شك ان التبريزي قد وضع يده على عين الصواب لانه خير من تفهم مذهب ابي تمام وفسر شعره.

ابتداع المعاني :

وقد اشار النقاد فيما تحدثوا فيه عن معاني ابي تمام . الى ابتداعه للمعاني ، فقال ابن الاثير «١» : «اما ابو تمام فانه رب معان وصيقل الباب واذهان، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ولم يمش فيه على اثر».

لكن ذلك لا يعني ان كل النقاد، سلموا للشاعر بالريادة، رغم ان ما اشتهر به ابو تمام بانه شاعر المعاني فقد «٢» « نقل الامدي عن محمد ابن العلاء السجستاني انه قال: وليس لابي تمام معنى انفرد به واخترعه الا **ثلاثة معان».**

غير ان الامدي يخالفه في هذا ويرى «٣» : «ان له على كثرة ما اخذه من اشعار الناس ومعانيهم مخترعات كثيرة وبدائع مشهورة». **ولا شك ان الذي دفع السجستاني** الى هذا الادعاء هو حنقه عليه وخصامه له؛ **اذ المعروف عن ابي تمام، انه** صاحب المعاني الذي لا يجاريه اي شاعر قبله ولا بعده. **ولعل ابن الاثير كان** اكثر توفيقا في حديثه عن ابتداع المعاني اذ اخذ **بنظر الاعتبار مسألة توارد الخواطر** . ورفض ان تكون المعاني موقوفة على **القدماء «٤» فاذا قيل:**ان المعاني المبتدعة سبق اليها ولم يبق معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرت ... والصحيح ان باب الابتداع للمعاني مفتوح الى يوم القيامة .. وكذلك يجرى الامر في غير ما اشرت اليه من معان ظاهرة، تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة، وتستوى في ايرادها كقول ابي تمام:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر، ٢٢٧/٣.
(٢) الامدي : الموازنة : ١٣٣/١ .
(٣) الموازنة : ١٣٤/١ .
(٤) ابن الاثير : المثل السائر، ٢١٩/٣ - ٢٢٠ .

فان هذا معنى مخصوص ابتدعه ابو تمام.

وانطلاقا من هذا الكلام. فقد رد ابن الاثير بصورة غير مباشرة على الذين يقللون من مقدرة ابي تمام على ابتداع المعاني «١» : «وقد قيل ان ابا تمام اكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعاني ، وقد عددت معانيه المبتدعة فوجدت ما يزيد على عشرين معنى ... وما هذا من مثل ابي تمام بكبير فمن ذلك قوله:

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وقوله:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

وقد مثل له لذلك بابيات كثيرة .

وابن الاثير هذا عجيب في اهتمامه بقضية المعاني والاشارة الى ابتداعها . ونحن نلمس من خلال ذلك انه كان معجبا بمعاني ابي تمام اعجابا شديدا، لانه كان يتمثل بكل ضرب من ضروب موضوعاته في المثل السائر بابيات من شعر ابي تمام، لا بل نحن نعجب من هذا الرجل الذي ابدى نظرات فريدة في مسألة المعاني. ففي مكان اخر من كتابه قسم المعاني قسمين، وتحدث عن القسم الاول فيها، وهي المعاني المبتدعة، ليؤكد اكثر من مرة، ان ابا تمام كان صاحب معان مبتدعة فقال : «٢» «الاول يبتدعه مؤلف الكلام من غير ان يقتدى فيه بمن سبقه، وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ويتنبه له عند الامور الطارئة فمن ذلك ما ورد في شعر ابي تمام في وصف مصلبين :

بكروا واسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم ابدا على سفر من الاسفار

وفي رأينا ان هذا الابتداع في المعاني مؤداه كثرة تجارب الشاعر، بكثرة اسفاره، وسعة ثقافته، المتنوعة واختلاطه الشديد باجناس شتى وطوائف كثيرة

(١) المصدر نفسه : ٢/٢٢٠
(٢) ابن الاثير : لمثل السائر، ٢/٧ .

وذلك كله، دون ريب، فتح امامه افاقا واسعة قلما توفرت في غيره .

السرقات :

وموضوع السرقات من اخطر الموضوعات التي عالجها النقاد القدماء ولا جدال في ان تلك المعالجة كان ينقصها الانصاف تارة، والحصافة النقدية تارة اخرى. وربما كانت في كثير من الاحيان نسبية، فربما حكم ناقد على بيت بانه مسروق ، فاذا بناقد آخر يعتبر المعنى شائعا لا اثر للسرقة فيه، او ان معنى البيتين مشترك، او فيه توارد خواطر ..... وهكذا .

وفي ذلك يقول الصاحب بن عباد: «١» «فاما السرقة فما يعاب بها لاتفاق شعراء الجاهلية والاسلام عليها ».

والمتحاملون على ابي تمام اتهموه جميعا بسرقة معاني الشعراء. ولقد استغلوا في رأينا ما جمعه من شعر القدماء في حماسته، فاتهموه بانه كان يغير على تلك المعاني وفي ذلك قال المرزباني «٢»: «وللطائي سرقات كثيرة احسن في بعضها واخطأ في بعضها ولما نظرت في الكتاب الذي الفه في اختيار الاشعار وجدته قد طوى اكثر احسان الشعراء . وانما سرق بعض ذلك فطوى ذكره ، وجعل بعضه عدة يرجع اليها في وقت حاجته».

واكثر الذين فصلوا في سرقات ابي تمام، هو الامدى ، فقد انفق فيه صفحات كثيرة من كتاب الموازنة. وبالرغم من تحامل الامدى على ابي تمام في مسألة السرقة الا اننا نلمس في ثنايا حديثه خطرات نقدية نزيهة، تدل على طول باعه في النقد، ومعرفته باشعار القدماء.فقد دافع عما «٣» «نسبه ابن ابي طاهر الى السرقة وليس بمسروق، لانه مما يشترك الناس فيه من المعاني ويجرى على السنتهم فمما نسبه الى السرقة وليس بمسروق قول ابي تمام :

الم تمت يا شقيق الجود من زمن فقال لي: لم يمت من لم يمت كرمه

---

(١) الصاحب بن عباد : الكشف عن مساوىء المتنبي،ص٤٣ .

(٢) المرزباني :الموشح ،ص٢٨١ .

(٣) الامدي :الموازنة ،ص١٢٠،١٢١ .

وقال: اخذه من قول العتابي :

ردت صنائعه اليه حياته فكأنه من نشرها منشور

ومثل هذا لا يقال فيه مسروق لانه قد جرى في عادات الناس. اذا مات الرجل من اهل الفضل والخير. واثني عليه بالجميل ان يقولوا : ما مات من خلف هذا الثناء، ولا من ذكر بمثل هذا الذكر. وذلك شائع في كل امر وفي كل لسان » .

ونحن نعجب بهذه الروح النقدية التي لا تدل فقط على ملكته الواسعة، وانما تدل على انه كان يعرف طبائع الشعوب. وعادات الناس. ومن خلال ذلك كان يصدر نقده. ولعل صاحب الوساطة كان اكثر انصافا من غيره فيما يخص سرقات ابي تمام. فقد رد كثيرا مما اتهم به هذا الرجل على انه ليس سرقة. وقد جاء الجرجاني في هذا بعد الامدى في قوة ملكته النقدية، لكنه كان اقل عنفا من الامدى امام هفوات ابي تمام. ففي مكان من الوساطة يدافع عما اتهم به الشاعر بانه مسروق وهو قوله:

ابدلته ارؤسهم يوم الكريهة من قنا الظهور قنا الخطى مدعما

«١» «وقد عد هذا من سرقات ابي تمام ولست اراه كذلك لانه ليس فيه اكثر من رفع الرؤوس على القنا وهذا معنى مشترك لا يسرق».

ومع ما قلناه في الامدى من انه كان يلح في نقده لسرقات ابي تمام ، الا انه في كثير من الاحيان يقنعنا بالحجة والبينة ، وذلك حين يضعنا وجها لوجه ، امام كثرة المعاني التي تشبه بيت ابي تمام فمن ذلك قوله «٢» : « وقال مسلم بن الوليد :

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرتحل

اخذه الطائي فقال :

وقد ظللت عقبان اعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل

اقامت مع الرايات حتى كانها من الجيش الا انها لم تقاتل

(١) الجرجاني : الوساطة :ص٢٣٠ .

(٢) الامدي: الموازنة،ص٦٢ .

فاتى في المعنى زيادة وهو قوله: « الا انها لم تقاتل » وجاء به في بيتين واخطأ ايضا في المعنى بقوله : « في الدماء نواهل » والنهل : هو الشرب الاول. والعلل : الشرب الثاني ، والعقبان لا تشرب الماء وانما تأكل اللحم. وقد ذكر المتقدمون هذا المعنى . فاول من سبق اليه الافوه الاودى، وذلك في قوله . . . الخ » .

وقد احتج لاثبات رايه بابيات للافوه الاودى والنابغة وحميد بن ثور وابي نؤاس ، ثم بين ما اخذه كل واحد من الاخر. وهو دليل خدمته في الشعر القديم ، وقوة ملكته اللغوية وحسن ادراكه لطبائع الاشياء .

وقد اثارت هذه الحملة — حملة السرقات — في مجال النقد ، فائدة لاتقل عن فائدة البحث في قضية اللفظ والمعنى . لان النقاد اخذوا يفسرون مظاهر السرقات وانواعها . وحين كانوا يريدون الدفاع عنها ، انتحلوا الاعذار لاصحابها فجعلوا لها اقساما وفروعا . كالمعاني المشتركة وتوارد الخواطر. والنظر والتشبيه .... الخ . وخير من فصل في هذا الشريف المرتضى ، فقد كتب في طيف الخيال «١» «انه لاينبغي لمنصف ان يقول : هذا البيت مسروق المعنى من فلان ، لانه قاطع على مالا يأمن هذا ان يكون كذبا . فربما توارد فيه من غير قصد . والاولى ان يقال : هذا نظيره ومشبهه .

وهكذا يجب ايضا الا يطلق احد معنى من المعاني انه سابق اليه ، وان كان لم يسمع له نظيرا ولا عثر له على شبه . فان الخواطر لاتضبط ولا تحصى .

ومن ذا الذي يحيط علما بكل ماقيل وسطر وذكر ؟ والانصاف ان يقال : في مثل هذا المعنى ينفرد به فلان ... ومن اخرج اليه خاطره بعض المعاني من غير ان يكون سمعه ولا قرأه ، ولا احتذاه . فله فضل الاستخراج والاستنباط الدائين على قوة الطبع وصحة الفكر » . والمعروف ان الشريف المرتضى كان من اشد المتعصبين لأبي تمام وقد دافع عن سرقاته في اكثر من مكان .

---

(١) الشريف المرتضى : طيف الخيال ، ص١٤١ .

الالـــفاظ :

ونصيب الالفاظ في نقد القدماء . ليس اقل من نصيب المعاني . ومن هنا كانت اهميتها في هذه الدراسة لاتقل عن اهمية دراسة المعاني . وقد تطرق القدماء في نقدهم **لالفاظ ابي تمام** الى اكثر من ناحية . فقد درسوها من حيث الضعف ومن حيث القوة . وعابوا فيها الوحشي والغريب . كما تطرقوا الى قوافي الشاعر ايضا . وحين وضع النقاد قواعد لالفاظهم الزموا الشعراء بقوالب معينة واساليب ثابتة كأنها لازمة من لوازم النظم الجيد . وحين كان الشاعر يخرج على تلك القواعد فانه يتعرض لمخاصمة النقاد ويصير شعره عرضة للنقد والتجريح . من ذلك ما اشترطه ابن رشيق في استعمال الالفاظ قوله «١» : «وللشعراء الفاظ معروفة ، وامثلة مألوفة ، لاينبغي للشاعر ان يعدوها ولا ان يستعمل غيرها » .

ويرى ابو هلال العسكري «٢» ان «الشأن ليس في ايراد المعاني . لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي . وانما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسن بهائه ، ونزاهته ونقائه ، وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب والخلو من اود النظم والتأليف ..... ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ماوصفناه من نعوته التي تقدمت » .

وما دام هؤلاء النقاد قد وضعوا شروطا للالفاظ — لا يجوز للشاعر ان يعدوها كما قال ابن رشيق ولا يقنعون بغير ماوصفوه منها كما قال العسكري — فان شعر ابي تمام لابد له ان يتعرض لنقد النقاد ، خصوصا وانه قد سار على هواه ، وانطلق من مبدأ مذهبه في التصنيع والزخرف والزركشة .

الغرابـــة :

ولعل اولى القضايا التي اخذها النقاد القدماء على الشاعر ما اسموه بغرابة

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، ٨٣/٢ .

(٢) ابو هلال العسكري : الصناعتين ، ص٥٧ وانظر : البيان والتبيين للجاحظ ص٧٥ .

الالفاظ وتعقيدها ووحشيتها . والواقع ان هؤلاء النقاد لم يكرهوا هذه الالفاظ من حيث هي وحشية او غريبة ، ولكنهم رفضوها في شعر المحدثين المتحضرين ورأوا ان هذه هي الفاظ البدو الجاهلين . فلا يجوز ان يستعملها شاعر متحضر كأبي تمام . ومن هنا وصف صاحب الوساطة ابا تمام بقوله « ١ »:« واظهر التعجرف وتشبه بالبدو ونسي انه حضري متأدب وقروي متكلف » .

ثم قال عنه بعد ذلك «٢» : « اذا اراد ان يجرى على سجيته جاءت الفاظ شعره فصيحة مألوفة . فاذا قصد التكلف كثرت في شعره تلك الالفاظ الغريبة الوحشية النافرة » . ومن هنا عدوا ابا تمام شاعرا متكلفا في الفاظه . لانه يتكلف الفاظ غيره ، ويبتعد عن الفاظ عصره «٣» « وكان ابو تمام يأتي بالوحشي الخشن كثيرا ويتكلف » .

ويبدو ان ابا تمام كان يتصنع هذه الالفاظ في صياغته تصنعا ينسجم مع مبدئه في التجديد ويتلاءم مع ثقافته التي تتطلب العمق ، والخروج على مألوف الناس . ومن هنا فقد اختلط في فنه الحوشي والتصنع في التلوين البديعي ، وذلك ماجعله شاذا في عصره ، خارجا على طريقة الشعراء في زمانه .

ويبدو ايضا انه تأثر بما جمعه من شعر الاوائل ، فاعجبه شعرهم واستهوته الفاظهم . ولذلك قال عنه الجرجاني «٤» « فانه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالاوائل في كثير من الفاظه فحصل منه على توعير اللفظ فقبح في غير موضع من شعره ... فتعسف ما امكن وتغلغل في التعصب كيف قدر . ثم لم يرض بذلك حتى اضاف اليه طلب البديع ، فتحمله من كل وجه وتوصل اليه بكل سبب » .

ورغم أعجابنا بقابلية ابي تمام في اختيار الفاظه – والتي هي دليل على سعة ثقافته وطول باعه في معرفة أشعار القدماء – الا اننا لانمتلك امام نقد النقاد

(١) الجرجاني : الوساطة ، ص٧٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص٧١ .
(٣) ابن رشيق : العمدة ، ٢/٣٦٦ .
(٤) الجرجاني : الوساطة ، ص١٩ .

سوى التسليم بالكثير مما اخذوه عليه . والا فكيف نحكم على شاعر عباسي متحضر يقول :

كان في الاجفلى وفي النقرى عر   فك نضر العموم نضر الوحاد

الا ترانا نوافق المرزباني في تعليقه على البيت بقوله «١» : وهذا من الكلام البغيض والغريب المستكره من البدوى . فكيف به اذا جاء من ابن القرية ؟ »

ومن اشد الذين تعرضوا لوحشي الالفاظ وغرابتها الامدى . والامدى هذا لم يترك هنة لابي تمام الا وتعرض لها بالنقد . وكثيرا ما اشتد بالقسوة على الشاعر . ولكننا احيانا لانمتلك الا ان نشفق على ابي تمام في الفاظه ، ونضم صوتنا الى الامدى . والامدى ليس كغيره يحكم بالعاطفة والهوى الشخصي ، وانما يصدر في اغلب الاحيان عن ذوق نقدى سليم مقنع . ومما عابه على ابي تمام واستثقله قول الشاعر :

خان الصفاء اخ خان الزمان اخا   عنه فلم يتخون جسمه الكمد .

وقد علق على البيت بقوله « ٢ » « فما اقبح ما اعتمد من الفاظ في البيت ، من اجل ان يشبهها . وهو خان وخان ويتخون . وقوله : اخ واخا فاذا تأملت المعنى مع ما افسده من اللفظ لم تجد له حلاوة ولا فيه كبير فائدة . لانه يريد خان الصفاء اخ خان الزمان اخا من اجله اذ لم يتخون جسمه الكمد ونحو قوله :

يوم افاض جوى اغاض تغربا   خاض الهوى بحرى حجاه المزبد »

الثقل والقبح :

ومما اخذه النقاد على ابي تمام ، ما اسموه ثقل الالفاظ وقبحها لثقلها وقد حاسبه عليها نصيره ابن الاثير وكان هذا معجبا بابي تمام . ولكن اعجابه به لم يحجب بينه وبين ما استثقله من الفاظ ، وانظر تعليقه على بيت ابي تمام الذي

---

(١) المرزباني : الموشح ، ص٢٧٨ .

(٢) الآمدي : الموازنة ص ٢٧٧ .

يقول فيه :

قد قلت لما اطلخم الامر وانبعثت عسواء تالية عبسا دهاريسا

فقد وصفه بالقبح وقال «١» : « فلفظة : اطلخم ، من الالفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين : في انها غريبة ، وانها لفظة في السمع كريهة على الذوق . وكذلك لفظة : دهاريس ايضا » .

ورغم اعجاب ابن الاثير بشعر ابي تمام ، الا ان نزاهة النقد كانت في كثير من الاحيان تغلب على هواه الشخصي . فاذا هو يصدر عن روح نقدي ، يتسم بسعة الافق وسلامة الذوق ، خصوصا حين يقارن مايراه ثقيلا كريها من شعر ابي تمام ، بشعر غيره الذي يراه لطيفا مقبولا . واقرأ تعليقه على بيت ابي تمام الذي عابه كثيرون من قبله وهو قوله :

يادهر قوم من اخدعيك فقد اضججت هذه الانام من خرقك

فقال ابن الاثير «٢» : « الا ترى انه وجد لهذه اللفظة في بيت ابي تمام من ثقل على السمع والكراهية في النفس ، اضعاف ما وجد لها في بيت الصمة بن عبدالله الذي يقول فيه :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الاصغاء ليتا واخدعا

من الروح والخفة والايناس والبهجة .

ونحن نضم صوتنا الى صوت ابن الاثير فنقول : ان بيت ابن الصمة دون شك اشد قبولا في الارواح ، واكثر خفة . ولكن من ذا الذي قال : ان ابا تمام لم يكن يدرك مثل هذا ؟ وهو في رأينا صدى لثقافته الممتزجة بالفلسفة والكلام والمنطق . ورغم هذا الذي اخذه ابن الاثير على الفاظ ابي تمام فان الناقد يعترف ان الفاظ صاحبه الشاعر من القوة ما لايحسن الاغضاء عنها . ولذلك فهو يعترف له بالفضل فيقول «٣» : « والالفاظ الجزلة تتخيل في السمع

(١) ابن الاثير :المثل السائر ، ٢٣٥ .

(٢) ابن الاثير :المثل السائر ص١-٣٨٤ .

(٣) ابن الاثير : المثل السائر ، ص١-٢٥٢ .

كأشخاص عليها مهابة ووقار . والالفاظ الرقيقة ، تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين اخلاق ولطافة مزاج . ولهذا نرى الفاظ ابي تمام . كأنها رجال قد ركبوا خيولهم . واستلأموا سلاحهم . وتأهبوا للطراد . وهي دون ادنى شك لمحات نقدية ناضجة تدل على طول باع الناقد في معرفة الالفاظ والاساليب وقد ادرك المحدثون ما في شعر ابي تمام من قدرة لغوية هائلة ، فاذا هم يدهشون امام هذا السيل الواسع من الالفاظ الجزلة القوية . وفي ذلك يقول نجيب البهبيتي «١» : « وديوان ابي تمام من اغزر الدواوين واكثرها عدد لفظ . فان سعة مادته اللغوية تدعو الى الدهشة . وان الانسان ليسائل نفسه عن مقدار ماكان الشاعر يلم به من مفردات اللغة . اذ كانت هذه المجموعة هي مقدار ماكان يجرى منها على لسانه ويستعمله في شعره » .

الجناس والطباق :

شعر ابي تمام نسيج متكامل في لحمته وسداه . فاهتمامه بعمق الالفاظ لم يلهه عن اهتمامه بجودة السبك وجمال التعبير . وقد الزمه جمال الصورة وتلوينها وتدبيجها ، ان يختار من الالفاظ ماتكون في شكلها وشيا جميلا يستهوى النفس . ومن هنا حرص ابو تمام على ان يصب في الفاظه كل ماهو جميل رقيق ، ومن هنا كان اهتمامه بالجناس والطباق . وقد اخذ عليه بعض النقاد شدة اهتمامه بالجناس والطباق ورأوا فيه اسرافا يخرجه عن وجه الصواب .

والواقع ان هذا اللون من التصنيع ليس جديدا في شعر ابي تمام ولا على عهده ، لكن ابا تمام خالف في استعماله القدماء . حين ربط التصنيع اللفظي ، وما قد يحدثه من روعة التصوير ودقة المعنى وهذا شيء لم يألفه القدماء من قبل ولا الفه نقاد عصره . ولذلك جعلوه مسرفا متجاوزا في جناسه وطباقه .

واقرأ ماقاله الباقلاني عن ابي تمام فيما يخص الجناس والطباق «٢» : « وربما

(١) ابو تمام : حياته ، وحياة شعره ، نجيب البهبيتي ، ص٢٣٦

(٢) الباقلاني ، اعجاز القرآن ، ص٥٣ .

اسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيره . حتى استثقل نظمه ، واستوخم رصفه ، وكان التكلف باردا والتصرف جامدا » .

اما الامدى فقد اكثر من الاستشهاد بما رآه جناسا ثقيلا ، وطباقا رديئا ، وشأنه في هذا هو شأنه في غيره مما رآه عيبا في شعر ابي تمام . وكان يستعمل في حكمه على الشاعر اقسى الالفاظ ، وانظر الى ذلك في قول ابي تمام :

قرت بقران عين الدين واشترت بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

فقال تعليقا على هذا التجنيس «١» : « فهذا كله تجنيس في غاية البشاعة والركاكة والهجانة » وامثال هذا كثير في كتاب الامدى .

وبرغم ما كان يأخذه ابو هلال العسكرى على ابي تمام في تصنيعه الا اننا نجد بين اونة واخرى لفتات نقدية توفي الشاعر حقه ففي حكمه على ابي تمام في هذا البيت يقول :

اصم بك الناعي وان كان اسمعا واصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

«٢» « وقالوا : هذا احسن ابتداء في مرثية اسلامية . وهذا بالطبع يقصد به جودة الطباق ايضا » .

اما ابن الاثير فقد كان من اكثر النقاد ايرادا لهذا اللون من تصنيع ابي تمام وقد ذكرنا ان الناقد كان يعجب بالشاعر ، ولذلك اكثر ايراد شعره في مثله السائر . لكن ذلك الاعجاب لم يمنعه ان يوجه النقد الى صاحبه فيعيب عليه «غريب تجنيسه» و «كريه طباقه» ومما اورده لابي تمام على انه من جميل التجنيس :

فاصبحت غرر الايام مشرقة بالنصر تضحك عن ايامك الغرر

لكن ابن الاثير وغيره من النقاد لم يكشفوا عما وراء هذه الاستعارات والتجنيسات من صور جميلة موحية . لان ظلال المعاني التي قصد اليها ابو تمام بفعل ثقافته الواسعة الممتدة ، وعقله العميق المتزن ، كانت ابعد مما رآه

---

(١) الامدي، الموازنة، ص٢٦٨ .

(٢) ابو هلال العسكري ، الصناعتين، ص٣٢٠ .

اولئك النقاد . ولذلك اكتفوا بايراد تلك التعليقات المقتضبة السريعة التي لا تستطيع ان تكشف عن روعة ذلك التصنيع .

اما ما اورده على انه كريه مستثقل فقول ابي تمام «١» :

ويوم ارشق والهيجاء قد رشقت   من المنية رشقا وابلا قصقا

وقوله :

قرت بقران عين الدين واشترت   بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

ولا شك اننا نؤيد ابن الاثير فيما استثقله على البيت الاول . اما الثاني فبرغم ثقله وشدة تصنعه فان ابن الاثير ليس له الفضل في نقده فقدورد ذلك في نقد الكثيرين من قبله . ولكن، هل اكتفى النقاد القدماء بما نقدوه من قضية اللفظ وقضية المعنى ، ام انهم تجاوزوهما الى اشياء اخرى ؟ لاشك ان شعر ابي تمام ومذهبه الجديد قد اثار اوسع عملية نقدية عرفها العرب — كما المحنا الى ذلك . ومن هنا فان هؤلاء النقاد لم يتركوا ابسط القضايا من شعر هذا الشاعر ، تمر دون ان يمسوها بالنقد الخفيف او العنيف ، فالقضايا التي اوردناها ، والتي هي اساس نقد شعر ابي تمام ، لم تكن هي كل شيء وانما تعداها النقاد الى مسائل اخرى تتعلق بها وتعود اليها .

حسن الابتداء :

فقد اشاروا مثلا الى حسن الابتداء في شعر ابي تمام وبينوا ما هو جيد عنده ، وفسروا ما هو قبيح فيه . ولعل اكثرهم ، اتفقوا على ان قبح الابتداء في شعر الرجل ، سببه غرامه بالبديع وتعلقه بالتجنيس «٢» ، ومما يكره من الابتداء قول ابي تمام :

تجرع اسى قد اقفر الجرع الفرد   ودع حسن عين يجتلب ماءها الوجد

وانما القى ابا تمام في مثل هذا المكروه ، تتبعه للتجنيس بين تجرع والجرع

(١) ابن الاثير ، المثل السائر ١/٣٤٤ .

(٢) ابن الاثير ، المثل السائر ٣/٩٩ .

وهذا دأب الرجل ، فانه كثيرا مايقع في ذلك» .

هذا هو رأي صاحبه وناصره ابن الاثير . ولعل النقاد كما قلنا قد اتفقوا في تعليل السبب ، فهذا المرزباني يرى هو الاخر ان ابتداءات ابي تمام المذمومة سببها غرامه بالتجنيس ومن قوله في ذلك «١» « فمن ابتداءاته المذمومة قوله : « خشيت عليه اخت بني خشين ».وهذا الكلام لايشبه خطاب النساء في منازلتهن ، وانما اوقعه في ذلك محبته للتجنيس وهو بهجاء الناس اولى» .

لكن المشهور في ابتداءات ابي تمام ، انها جيدة يصب فيها احيانا كل عواطفه وقوة ملكته ، وقد حمد له ذلك اغلب النقاد وكادوا يتفقون -- انصاره وخصومه — على ابتداءات معينة اشتهر بها ابو تمام من مثل قوله :

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

او قوله :

الحق ابلج والسيوف عوار فحذار من اسد العرين حذار «٢»

التشـــبيه :

ولقد عني ابن الاثير في تشبيهات ابي تمام ، ولم يمنعه اعجابه به من نقده وبيان سقطه في هذا الشأن . ولذلك وقف على كثير من تشبيهاته المعيبة فنبه عليها ، من مثل قول الشاعر يمدح :

وتقاسم الناس السخاء مجزءا وذهبت انت برأسه وسنامه
وتركت للناس الاهاب وما بقى من فرثه وعروقــه وعظامه

وقد علق على البيت بقوله «٣» « : ان هذا التشبيه من اقبح ماسمعته . والقبيح الفاحش في البيت الثاني . وكل هذا التعسف في التشبيه البعيد دندنة حول معنى ليس بطائل فان غرضه أن يقول : ذهبت بالاعلى وتركت للناس الادنى ، او ذهبت بالجيد وتركت للناس الرديء»

والواقع ان ماأوقع ابا تمام في بعض الاحيان ، هو تدفق معانيه التي لم تترك لهمجالا ليرتب صوره ويقوم الفاظه. لكن ذلك لايعنيان هؤلاء النقادكان

---

(١) المرزباني، الموشح،ص٢٧٩ .
(٢) انظر بشأن ذلك ،العمدة ، ٢٣٣/١ ثم انظر موازنة الامدي ووساطة الجرجاني .
(٣) ابن الاثير ، المثل السائر ، ١٥٣/١ .

يحالفهم الحظ في كل الاحوال . فمن جملة مااخذه عليه اغلبهم قوله :

لا تسقني ماء الملام فانني صب قد استعذبت ماء بكائي

فقد عاب اغلب النقاد عليه هذا التشبيه الرائع لانهم انكروا ان يكون للملام ماء . وقد اورد ابن الاثير رأي النقاد فيه ، لكنه هو نفسه لم يرفضه او يستقبحه فقال : «١» « وقيل : انه جعل للملام ماء وذلك تشبيه بعيد . وما بهذا التشبيه عندي من بأس بل هو من التشبيهات المتوسطة التي لاتحمد ولا تلام . وهو قريب من وجه بعيد من وجه . اما سبب قربه ، فهو ان الملام هو القول الذي يعنف به الملوم لامر جفاه وذاك مختص بالسمع فنقله ابو تمام الى السقيا التي هي مختصة بالحلق . واما سبب بعد هذا التشبيه فهو ان الماء مستلذ ، والملام مستكره . فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه » .

ونحن من جانبنا لانعتبر التشبيه بعيدا ، وانما نرى الشاعر قد ذهب الى ابعد مما يذهبون . حين اوحت اليه بذلك روعة الصورة التي تصورها في ذهنه ، مما ليس في ذهنهم ولا في تشبيهاتهم كذلك فقد تطرقوا الى اغراض الشاعر ،وبينوا ما اجاد فيه وما استقبح منه وكادوا جميعاان يتفقوا على ان ابا تمام قد بز الشعراء في المدح ، واجاد في الرثاء ، ورأوا ان غزله ليس بجيد . وذكروا من فرائد مدحه قصيدته في مدح المعتصم التي اولها «السيف اصدق انباء من الكتب» وهي قمة المدح الرائع . وقصيدته في مدح عبدالله بن ابي طاهر التي اولها «هن عوادى يوسف وصواحبه» . وقد صارت علما في المدح .

لكن ذلك لايعني انهم استملحوا كل مدحه . فلقد عاب الجرجاني كثيرا من ابيات مدحه كقوله :

أأترك حاجتي غرض التواني وانت الدلو فيها والرشاء

مشيرا في ذلك الى تشبيه الممدوح بالدلو وهو قبيح وقوله :

ضاحي المحيا للهجير وللقنا تحت العجاج تخاله محرانا

وقوله :

تثفي الحرب منه حين يغلى مراجلها بشيطان رجيم

(١) ابن الاثير ،المثل السائر ١٥٥/٢ .

«١» « فهو يجعل الممدوح تارة دلوا وتارة محراثا ومرة شيطانا رجيما » .

اما صاحب العمدة فيجعل : «٢» « ابا تمام من المعدودين في اجادة الرثاء ويستدل على ذلك في قصيدة رثى بها محمد بن حميد فيقول :

الا في سبيل الله من عطلت له فجاج سبيل الثغر وانثغر الثغر

ولا شك ان ابن رشيق صاحب ذوق سليم، والا لكان عابه على تكرار كلمة الثغر . وهو مما كان يحاسب به بعض النقاد القدماء . لكن تكرار الكلمة هنا جاءت رائعة قوية .

وعدوا ابا تمام ضعيفا في غزله وقد قال ابن رشيق في ذلك «٣» «ولم يكن لابي تمام حلاوة توجب له حسن التغزل . وانما يقع له من ذلك التافه اليسير في خلال القصائد » . لكنهم لم ينكروا غزله الجيد ، فقد اورد له ابن الاثير قصيدة قال في تعليقه عليها . «٤» « وله في الغزل من الاستعارة مابلغ به غاية اللطافة والرقة ، وذلك في قصيدته التي مطلعها «ان عهدا لو تعلمان ذميما» فقال :

قد مررنا بالدار وهي خلاء فبلينا طلولها والرسوما

وسألنا ربوعها فانصرفنا بسقام وما سألنا حكيما

كنت ارعى النجوم حتى اذا ما فارقوني امسيت ارعى النجوما»

اما الامدى فقد اشار الى بعض اغراضه ، وفصل كثيرا في بعض معانيها خصوصا ما تعلق منها بالوقوف على الديار وما يتعلق بها من تعفية وبكاء وسؤال ودعاء ووصف وغير ذلك «٥» .

ولعل هناك شيئا مهما ، نحاول ان نغلق البحث في الاشارة اليه ، ذلك الشيء هو اختيارات ابي تمام التي لاتقل شهرة عن شعره . وما اهتمام النقاد في

(١) الجرجاني ، الوساطة ، ص٦٩ .
(٢) العمدة ، ابن رشيق ، ٢/١٤٨ .
(٣) ابن رشيق ، العمدة ، ٢/١١٩ .
(٤) ابن الاثير ، المثل السائر ٢/١٠٤ .
(٥) انظر بشأن ذلك كتاب الموازنة .

الحديث عنها . وما عناية الشراح بشرحها . والتعليق عليها . ودراسة الدارسين لها الا برهان اكيد على دقة ذوق الشاعر وطول باعه في معرفة الشعر القديم .
وقد اشاد الباقلاني بهذه الاختيارات حين قال «١» : «في الاختيار ماسلكه ابو تمام من الجنس الذي جمعه في «كتاب الحماسة» وما اختاره من «الوحشيات» وذلك انه تنكب المستنكر الوحشي ، والمبتذل العامي . واتى بالواسطة وهذه طريقة من يتصف في الاختيار ولا يعدل به غرض يخص» .
وبعد ، فهذا شعر ابي تمام في ميزان نقادنا القدماء . وهو–مهما اختلفت فيه آراء النقاد وتعددت به اتجاهاتهم– سجل حافل باروع الصور واعمق الافكار وهو ادل على شيء فانما يدل على ان في تراث امتنا كنوزا ثمينة لاتفنى .



(١) الباقلاني ، اعجاز القرآن ، ص ١١٧ .

إكبار المبرد أبا تمام [1]

حازم الحاج طه

اما ابو تمام فانه رب معان . وصيقل الباب واذهان .
وقد شهد له بكل معنى مبتكر . لم يمش فيه على اثر .
فهو غير مدافع عن مقام الاغراب الذي برز فيه على
الاضراب . ولقد مارست من الشعر كل اول واخير .
ولم اقل ما اقول فيه الا عن تنقيب وتنقير . فمن حفظ
شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه
اطاعته اعنة الكلام . وكان قوله في البلاغة ما قالت
حذام فخذ مني في ذلك قول حكيم وتعلم ففوق كل
ذي علم عليم »

الاديب الناقد ابن الاثير

طلب الي ان اساهم في الكتابة عن ابي تمام . ولما كنت حفيا كل الحفاوة بالمبرد ، مقبلا اشد الاقبال على آثاره ،حريصا الحرص كله على ايفائه حقه

(١) هو ابو العباس محمد بن يزيد بن عبد الاكبر ، وينتهي نسبه الى الاسد بن الغوث وهو الازد فهو ثمالي ازدى بصرى . ولد بالبصرة يوم الاثنين غداة عيد الاضحى سنة (٢١٠)هـ وتوفي سنة (٢٨٥)هـ في شوال وقيل في ذي القعدة بلغ المبرد في علوم اللغة العربية وفنونها من الجلالة مالم يبلغه الا القليل حتى آلت اليه زعامة النحو البصري ، وهو-وان كان لايعرف الا بالنحوي واللغوي – ذو قدم مكينة ، وبصر نافذ بالنقد والادب . وقد خلف كتبا حسانا تدل على فضله الجم ،وعلمه الغزير، غير ان الدهر قد عبث بجل هذه الكتب ولم يبق منها الا القليل . وهذا القليل كله علم من صميم العلم،ولذا نراه يغني غناء الكثير ، بل اكثر من الكثير ، ومن اشهر هذه الكتب (الكامل) في اللغة والادب والنحو والتصريف .(والمقتضب) في النحو والصرف .

ونشر آرائه . كان لزاما علي ان اورد رأي المبرد في ابي تمام وشعره . واني لادلي دلوي بين الدلاء اقتداء بالمبرد كي أؤدي مايجب علينا من حق لشاعر ملك شعره الالباب وخلب القلوب . بما حفل من رائع القول ورصانته ، وجيد المعنى ورونقه ، وعبقرى الفكر وبديعه . وعذوبة الاسلوب وروعته . وسمو الخيال وحدته . ودقة التصوير وجودته . ومصطفى اللفظ ونيره . فتبوأ مكانة سامية لاتدانيها مكانة . وحل في النفوس منزلة لاتساميها منزلة .

ولست بمسرف في القول ان قلت: ان ابا تمام هو ذلكم الطود الاشم الذي يعز على من رامه . انك اينما وليت وجهك شطر شعر الرجل رأيت صورا فنية شائقة تبهرك وتثير فيك الاعجاب . ولو انك ارسلت الطرف وامعنت النظر مرة اثر اخرى في شعره لتبدت لك غرر أخاذة ، ومعان رائعة لم تهتد اليها من قبل .

فابو تمام — وبيننا وبينه مايربو على الف سنة — يطغى على الدهر جدة . ويزهو على الايام قوة . فلكم صور ما نحس به من خلجات واحاسيس فأوفى على الغاية من دقة التصوير . ولكم ابدى ماتكن اعماق افئدتنا من مطويات اخبارها . ابداها حكمة بالغة تخطت الحقب ، واجتازت مفاوز الزمن فتجلت لدة الدهر في شبيبته . الق السمع الى بعض حكمه التي لايشينها خطل ولا خلل :

وليس يجلي الكرب رمح مسدد ... اذا هو لم يؤنس برأى مسدد «١»

وقوله «٢» :

واذا اراد الله نشر فضيلة ... طويت اتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يعرف طيب عرف العود

---

(١) يجلي : يكشف ، ورمح مسدد : مصوب الى هدفه ، ورأى مسدد موفق للصواب ، ويؤنس اراد يضاف له فيؤازره . والبيت من قصدة له مطلعها :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد ... وعاد قتادا عندها كل مرقد

(٢) البيتان من قصيدة له مطلعها :

أرأيت اي سوالف وخدود ... عنت لنا بين اللوى فزرود

وقوله «١» :

لاتنكري عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكان العالي

وقوله «٢» :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما   فليقس احيانا على من يرحم

وقوله «٣» :

ينال الفتى من عيشه وهو جاهل   ويكدى الفتى في دهره وهو عالم

ولو كانت الارزاق تجري على الحجا   هلكن اذن من جهلهن البهائم

وقوله «٤» :

ليس الصديق بمن يعيرك ظاهرا   متبسما عن باطن متجهم

تره فيها عالما من علماء النفس والاجتماع بلا الزمان واهله . وسبر اغوار نفوسهم ، ودرس طباعهم ، وخبر اعماق افئدتهم ، وكشف عن مكنون صدورهم . فكان ما احس به صادرا عن وحي ذكائه الثاقب . ورأيه الصائب . مدللا كل اولئك ببرهان ساطع ، وحجة قوية لاتدحض . اذ انه كان لايصدر حكمه وآراءه الا بعد اختبار طويل ، ودرس عميق . وما هذه الحكم الا دليل قاطع على حصافة ابي تمام ، وثقوب بصيرته ، وعبقرية الفكر . ولله دره اذ يقول في وصف شعره :

---

(١) البيت من قصيدة له مطلعها :

كفي وغاك فانني لك قالي   ليست هوادي عزمتي بةوالي

(٢) البيت من قصيدة له مطلعها :

ارض مصردة واخرى تثحم   منها التي رزقت واخرى تحرم

(٣) البيتان من قصيدة له مطلعها :

الم يأن ان تروى الظماء الحوائم   وان ينظم الشمل المشتت ناظم ؟

(٤) البيت من قصيدة له مطلعها :

نثرت فريد مدامع لم ينظم   والدمع يحمل بعض ثقل المغرم

خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى والليل اسـود حالك الجلباب
بكرا تورث في الحياة وتنثني في السلم وهي كثيرة الاسلاب
ويزيدها مر الليالي جـدة وتقادم الايام حسن شـباب

الى غير ذلك من الحكم التي يزخر بها شعره . فالرجل يفيض قلبه بالحكمة الصائبة ، والتجربة الصادقة ، وهو في هذا كالبحر الذي جشأت غواربه يغمر برغمه ساحليه .

ولم يكن ابو تمام بالذي نال ما نال من المقام بما ذكرنا من ابيات ، بل سما بالشعر فتبوأ الذروة به جله . وحسبك دليلا ان تجيل الطرف بين لابتي ديوانه ، ودفتي آثاره فانك لن تصيب الا اسمى الشعر وارفعه ، واجود الكلام واروعه ، واحسن القول وابلغه .

لقد استهدف ابو تمام بشعره كل غرض من اغراضه ، وولج كل مولج من فنونه ، وطرق كل مغنى من معانيه . فكان المجلي . فما وهن ولا اسـف ولا فشلت مراميه ، ولا شاهت معانيه . انه كان ينتحي منحى تواتيه فيه الغرر امتلك بها ناصية الفن الشعري ، فكان لها في سويداء القلوب مقام ومستقر فلا تبرحها .

* * *

لمحة خاطفة الى الشعر ، قديمه ومحدثه عند اللغويين والنقاد والرواة في عصر المبرد وعصر من سبقوه :

واني — قبل ان اعرض لرأى المبرد في ابي تمام وشعره — اود ان اضع امام نظر القارىء كلمة موجزة لامندوحة عنها ، الا وهي نظرة ائمة اللغة والنقد والرواية الى الشعر قديمه ومحدثه في عصر المبرد وعصر من سبقوه وما اثارت هذه النظرة من اوار بين فريقين متبايني المنزع ، مختلفي الوجهة حتى يستبين القارىء منحى المبرد في الشعر قديمه ومحدثه .

ان فريقا تعصب اشد التعصب للشعر القديم وديباجته ورسومه . وكان وكان لا يراه الا المثل الكامل لما ينبغي ان يكون عليه الشعر .

ولا يعدل به شيئا فاحله محل العناية والرعاية . اما المحدث فكان عندهم غثاء لا يعبأ به . فلذا نراهم اعرضوا كل الاعراض عن ابي تمام وابي نواس والمتنبي والبحتري وغيرهم ، ونأوا عنهم بجانبهم ، وطووا كشحا عن شعرهم .

اما الفريق الاخر فلم ير رأي الفريق الاول، وانما نظر الى الشعر من حيث هو شعر دون نظر الى الزمن سواء اكان مصدره قديما ام حديثا . ويرى ان فضيلة الشعر انما تنبع من ذاته وصدق جوهره ، وان المحدثين والقدماء في هذا الميزان سواء . ومن هنا احتدمت المعركة بين هذين الفريقين في نظرتهما الى الشعر . فهذا ابو عمرو وهو من غلاة المتعصبين للشعر القديم ، ويعد الشعر الاسلامي شعر مولدين حتى كان يقول : «لقد احسن هذا المولد حتى هممت ان آمر صبياننا بروايته» «١» يعني بذلك شعر جرير والفرزدق . فجعله مولدا بالاضافة الى شعر الجاهلية والمخضرمين . وكان لا يعد الشعر الا ماكان للمتقدمين .

قال الاصمعي : جلست اليه ثماني حجج فما سمعته يحتج ببيت اسلامي . وسئل عن المولدين فقال : ماكان من حسن فقد سبقوا اليه، وماكان من قبيح فهو من عندهم . ليس النمط واحدا : ترى قطعة ديباج ، وقطعة مسيح ، «٢» وقطعة نطع . علق ابن رشيق بقوله : «هذا مذهب ابي عمرو واصحابه : كالاصمعي وابن الاعرابي ، اعني ان كل واحد منهم يذهب في اهل عصره هذا المذهب ، ويقدم من قبلهم ، وليس ذلك الشيء الا لحاجتهم في الشعر الى الشاهد ، وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون ثم صارت لجاجة . «٣»

ويروى المرزباني في مؤلفه «٤» ان ابن الاعرابي كان يقول : «انما اشعار هؤلاء المحدثين — مثل ابي نواس وغيره — مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به، واشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا» .

---

(١) العمدة لابن رشيق،ج١ص٩٠،٩١ .
(٢) قوله المسيح : المنديل الخشن .
(٣) نفس المصدر،ص٩١ .
(٤) الموشح ص٣٨٤ .

ويروى ايضا عن ابي عبيد الله التميمي قوله : «كنا عند ابن الاعرابي فانشده رجل شعرا لابي نواس احسن فيه . فسكت.فقال له الرجل : اما هذا من حسن الشعر ؟ فقال : بلى . ولكن القديم احب الي » «١» .

ويروى ابن قتبة في مؤلفه عن ابي الحسن الطوسي قوله : «كنا عند ابن الاعرابي ، فقال : ايهما احسن عندكم قول ابي نواس :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

او الذي اخذ منه ،وهو قول الاعشى :

وكأس شربت على لـذة واخرى تداويت منها بها

فسكتنا . فقال : السابق اجود » «٢» .

هكذا يحكم ابن الاعرابي . ويفضل بيت الاعشى على بيت ابي نواس . وكان الناس يستجيدون قول الاعشى الى ان قال ابو نواس بيته فزاد فيه معنى . اجتمع له به الحسن في صدره وعجزه . فللاعشى فضل السبق عليه . ولابي نواس فضل الزيادة عليه مع ان قول ابي نواس :

وداوني بالتي كانت هي الداء

قد اخل بيت الاعشى ، وسار وحده مثلا بما فيه من ايجاز وخفة ورشاقة ، ولكن هي العصبية للقديم .

ويقول الصولي في مؤلفه : «ومن الافراط في عصبيتهم عليه – يعني ابا تمام – ما حدثني به ابو العباس عبد الله بن المعتز قال : حدثت ابراهيم بن المدبر – ورأيته يستجيد شعر ابي تمام ولا يوفيه حقه – بحديث حدثنيه ابو عمرو بن ابي الحسن الطوسي، وجعلته مثلا له ، قال : وجه بي ابي الى ابن الاعرابي لاقرأ عليه اشعارا ،وكنت معجبا بشعر ابي تمام . فقرأت عليه من اشعار هذيل ثم قرأت ارجوزة ابي تمام على انها لبعض شعراء هذيل :

وعاذل عذلته في عذله فظن اني جاهل من جهله

حتى اتممتها . فقال : اكتب لي هذه ، فكتبتها له ، ثم قلت : احسنة هي ؟

(١) المصدر السابق ص٣٨٤ .

(٢) المصدر السابق ص٤١٣ .

قال : ماسمعت باحسن منها ! قلت : انها لابي تمام فقال : «خرق «١» خرق» «٢» .

ويروى الجرجاني في مؤلفه «٣» « ان اسحاق بن ابراهيم الموصلي قال : انشدت الاصمعي :

هل الى نظرة اليك سبيـــل فيبل الصدى ويشفى العليل ؟
ان ماقل منك يكثر عنـدي وكثير ممن تحب القليـل

فقال : والله هذا الديباج الخسرواني ، لمن تنشدني ؟ فقلت : انهما لليلتهما . فقال : لا جرم والله ان اثر التكلف فيهما ظاهر» .

الى هذا الحد من التعصب والاسراف وصل الامرعند هؤلاء في لمز المحدثين وعيب اشعارهم . لا لعيب سوى حداثتهم . ويؤثرون عليهم المتقدمين لا لمزية سوى قدمهم، من غير حجة ، ولا نقد معلل ، ولا موازنة مقبولة ، على اننا اذا امعنا النظر ، واجلنا الطرف في شعر المحدثين : ابي تمام وابي نواس والبحتري والمتنبي وغيرهم وجدنا فيه من نضارة الشعر وفصاحته ، وبراعة معانيه ،ودقة تعبيره وحلاوته ما لم يظفر بمثله الشعر القديم .

اما وقد استبانت مما عارضناه نظرة اللغويين والنقاد والرواة الى قديم الشعر نظرة ترينا القديم في الذروة وان كان سمجا غثا . واما المحدث وان علا وتسامى فهو عندهم هراء فج غير جدير بالالتفات اليه .

بعد هذه اللمحة الخاطفة التي لم يكن بد من تقدمتها بين يدي القارىء يجدر بنا ان نسأل هذا السؤال : هل جارى المبرد معاصريه ومن سبقوه من اللغويين والنقاد والرواة في نظرتهم الى الشعر ؟ والجواب عن ذلك ان مقام المبرد في العلم لم يجعله اسيرا ولا رهينا لمذهب معاصريه ومن سبقوه من اللغويين والنقاد . انه نهج نهجا خالفهم فيه، ووقف من الاثار قديمها وحديثها موقفا لا يصغي فيه الا الى رأيه ، ولا يسترشد الا بمنطقه ، ولا يحابي من كانوا

(١) التخريق : التمزيق
(٢) اخبار ابي تمام للصولي،ص١٧٥ -١٧٦ .
(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه،ص٥٠ .

يرون القديم جليلا والحديث غثا . انه رأى جل العلماء واللغويين والنقاد يؤثرون القديم ويجعلون كل قديم عندهم ذا شأن خطير ، ومقام رفيع . ولكن المبرد القاضي العادل . والحكم الامين اعرض هذا الاتجاه ووقف الموقف الذي يليق بامثاله من الذين تضلعوا في العلم ، واخذوا من الثقافة باوفر حظ واوفى نصيب ، وعكف على التراث قديمه وحديثه فاستحسن ماكان حسنا من القديم ، واستحسن كذلك ماكان حسنا من الحديث . ان الحكم الفصل عند المبرد القول نفسه لا القائل قديما كان او حديثا . فالقول ان اوتي الحسن فهو حسن سواء اكان زمانه قديما ام حديثا وهذا ما حدا به ان يعجب ويستحسن الكثير من شعر ابي تمام .

انشد المبرد قول ابي تمام : «١»

شهدت لقد اقوت مغانيكم بعدى ومحت كما محت وشائع من برد
وانجدتم من بعد اتهام داركم فيا دمع انجدني على ساكني نجد

حتى بلغ الى قوله :

اتاني مع الركبان ظن ظننته لففت له رأسي حياء من المجد
لقد نكب الغدر الوفاء بساحتي اذا وسرحت الذم في مسرح الحمد

فقال المبرد :

«ماسمعت احسن من هذا قط . ما يهضم هذا الرجل حقه الا احد رجلين اما جاهل بعلم الشعر ومعرفة الكلام ، واما عالم لم يتبحر شعره ، ولم يسمعه.»

فالمبرد في هذه اللمحة النقدية فسيح الافق ، بصير بفنون الكلام ، حسن الذوق ، صادق الحكم في استحسان قول ابي تمام . اذ انه قصد فيه الكلام الفصيح ، والمعاني الواضحة ، وحسن الوصف ، وجمال الرصف ، وجزالة اللفظ واستقامته . والمعروف عن ابي تمام انه كان ذا منهج بياني ينتحي فيه منحى صادرا عن طبعه حتى اتى كثير من شعره فيه عمق يتطلب من قارئه كد

(١) اخبار ابي تمام للصولي ص٢٠٢ .

الفكر حتى اذا لان له عصيه . وذل شاسه استطاع ان ينفذ الى اغواره ، ويصل الى اسراره ، ويكتنه معانيه الخفية .

ويقول : «١» «لابي تمام استخراجات لطيفة . ومعان طريفة ، لايقول مثلها البحتري وهو صحيح الخاطر حسن الانتزاع . وشعر البحتري احسن استواء . وابو تمام يقول النادر والبارد وهو المذهب الذي كان اعجب الى الاصمعي . وما اشبه ابا تمام الا بغائص ، يخرج الدر والمخشلبة . ثم قال : والله ان لابي تمام والبحتري من المحاسن مالو قيس باكثر شعر الاوائل ماوجد فيه مثله » .

والمبرد بهذا الحكم قد انصف كلا من الشاعرين اعدل انصاف . اعطى ابا تمام خواصه في اختراع المعاني وطريفها ، وصحة خاطره في حسن انتزاعها . كما اعطى البحتري حقه في استواء الاسلوب والمعاني ، وان شعره من درجة واحدة في الاعتدال . واخيرا انصف الشاعرين جملة من تقدمهما من الشعراء الاوائل . وان لهما من المحاسن مالو قيس باشعار القدماء ما وجد مثله .

وهكذا يدق نظر المبرد وذوقه النقدي المنصف في شاعرين يعاصرانه . ويكثر حولهما الخلف وتباين الاراء . كما انه كان غير هياب من المجاهرة بالنقد واظهار مكامن الحسن او القبح فيما يسمع او يقرأ وان كان القائل من نابهي الشعراء او الادباء .

ويقول في معرض الموازنة .

وقال احد الشعراء «٢» :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

يقول : اغترب فأكسب مايطول به مقامي معكم وقربي منكم .

ومثل ذلك قول الاول : «٣»

---

(١) اخبار ابي تمام للصولي، ص٩٦، ٩٧ .

(٢) هو العباس بن الاحنف .

(٣) البيت لعروة بن الورد .

تقول سليمى لو اقمت لسرنا   ولم تدر اني للمقام اطوف
وهذا الثاني واضح حسن . وهو ابين من البيت الاول .
واملح ماجاء في هذا المعنى واحسن قول ابي تمام حبيب بن اوس الطائي :
ألفة النحيب كم افـتراق   اظل فكان داعية اجتماع
وليست فرحة الاوبات الا   لموقوف على ترح الـوداع
علق المبرد بقوله «فهذا كلام عربي محض . وهذا مفاضلة بين الاشكال والنظراء » «١» .

ففي البيت الاول نرى الشاعر يريد النوى كي لايمل طول مقامه بينهم . فبعده عن الاحبة يقربهم من قلبه ويكثر حنينه منهم . اذ من عادة الزمان الاتيان بضد المراد . فاذا اريد البعد يأتي الزمان بالقرب . ويريد الشاعر ايضا ويطلب الحزن الذي لازم البكاء ليحصل السرور بما هو من عادة الزمان .
فاراد ان يكني عما يوجبه دوام التلاقي من السرور بالجمود . لظنه ان الجمود هو خلو العين من البكاء مطلقا .

ومما ينبغي ان ننوه به ان الجمود لايكون كناية عن السرور . بل عن البخل فيكون الانتقال من جمود العين الى بخلها بالدموع لا الى ما قصده من السرور .
وهذا ما ورد عن اهل اللغة «سنة جماد» اي لا مطر فيها ، و «ناقة جماد» أي لا لبن فيها .

واما البيت الثاني فأبين واوضح كما قال المبرد ، لان الشاعر يطوف لا حبا في التطواف بل طلبا لشدة القرب ان حل بين ظهراني اهل حبيبته . فطول الثواء يورث الملل والسأم . والشاعر يريد ابعاد هذا الملل والسأم واما قول ابي تمام فهو — لاشك فيه — اوضح وادق واغزر معنى من البيتين . اذ ادى الحقيقة في اسباب واقعية . فالترح — أي الحزن — يكون ساعة الوداع ، والفرح والسرور يكونان ساعة اللقاء . فالمتحابان قد يتصارمان ويتهاجران دلالا لا عزما على القطيعة . فاذا حان الرحيل واحسا بالفراق تراجعا الى الوداد وتلاقيا خوف الفراق . وان يطول العهد بالالتقاء بعده ، فيكون الفراق حينئذ سببا للاجتماع .

(١) البلاغة لابي العباس المبرد ، ص٦٢،٦٣ .

واني اويد المبرد فيما ذهب اليه . واركن الى ترجيحه . فالترجيح واضح لكل من اوتي فهما للمعنى . اننا لمسنا كما لمس المبرد نهاية الحسن وغاية الكمال في قول ابي تمام . فالجودة بادية . والروعة ظاهرة .فلا بد من الاعتراف بفضل صاحب الفضل .

وانشد المبرد للعتبي : «١»

اضحت بخدى للدموع رسوم اسفا عليك ، وفي الفؤاد كلوم
والصبر يحسن في المواطن كلها الا عليك ، فانه مذمـــوم

قال : واخذه الطائي فقال في ادريس بن بدر السامي :

دموع اجابت داعي الحزن همع توصل منا عن قلوب تقطع
وقد كان يدعى لابس الصبر حازما فاصبح يدعى حازما حين يجزع

قال : وجاء به الطائي في موضع آخر . فقال :

الصبر اجمل غير ان تلذذى في الحب احرى ان يكون جميلا

ان هذه الابيات ترينا ان المبرد كان يلتمس شعر ابي تمام اني وجده وفي اية مناسبة انشد كلفا بشعره وهياما به .

ثم نرى المبرد يضع بابا خاصا باحسن ما قيل في غرض من اغراض الشعر ، وفي هذا الباب استحسن ما قاله ابو تمام في الشيب ، فيقول : «٢»

« قصدنا فيما نحكيه في كتابنا هذا حسن الاختيار ، وكثرة الاختصار ، وذكر ما يستغنى به عن غيره ، ويقنع بمثله عن نظيره ، وانما نذكر في كل باب احسن ما روى لنا فيه ، واطرف ما نمي الينا منه » .

ثم يقول « كانت العرب تذكر الشيب في اشعارها اما مدحا واما ذما ، وشعرهم في ذمه اكثر منه في مدحه ، ويروى انه قيل : ما بال شعركم في الشيب احسن اشعاركم في سائر قولكم ؟ قالوا : لانا نقوله وقلوبنا قرحة » .

وقال الطائي :

---

(١) الموازنة ،ص١٠٣ .
(٢) الفاضل للمبرد، ص٧٥ .

اری الفات قد كتبن على راسي　　باقلام شيب في صحائف انقاسي
فان تسأليني من يخط كتابتها　　فكف الليالي تستمد بانفاسي
جرت في قلوب الغانيات لشقوتي　　قشعريرة من بعد لين وايناس
وقد كنت اجرى في حشاهن مرة　　مجاري معين الماء في قضب الآس

نرى ابا تمام بوصفه هذا يبكي شبابه بعد ان دب المشيب في رأسه ، وبلغ في رأسه مبلغا افقده ما كان يتمتع به من صبوة ، ومن قوة وفتوة، واقبال على الحياة كان ينهل منها ما لذ وطاب ،وما الشيب الا مدعاة للرثاء على النفس ،وبكاء على زوال العمر ،وشعور بأن ما فات لن يعود .

فالمبرد في اختياره هذا النص فارس حلبة وسباق الى ما حسن من مكامن الحسن في روائع الكلام .

اما وقد استفدنا ما قاله المبرد في ابي تمام وشعره ، فكانت حصيلة آرائه ان ابا تمام من فحول الشعراء المحدثين ، وان المبرد قدر شعره حق قدره، ولولا ان هذا الشعر كان قمينا بالاكبار لما استوقف اماما من ائمة اللغة والنقد واثار فيه الاعجاب . والمبرد بهذا الرأي يرتفع في نقده عن مستوى العصبية التي تنزع الى العصر ،وتفضل شعر عصر على شعر عصر اخر . ويرى ان فضيلة الشعر انما تنبع من ذاته، وصدق جوهره ،وان المحدثين والقدماء في هذا الميزان سواء ،لا ميل الى جانب ،ولا تعصب الا للحق ،ولا فضل لقديم لقدمه. ولا لمحدث لحداثته ، انما الشان في الاثر وقيمته ونفاسته وجودته ،واذا عرفنا ان المبرد من رجال اللغة الذين حملوا على الشعر المحدث حملة عنيفة ادركنا صدق نظرته ،ورجاحة عقله، وفرط اتزانه ،وترفعه عن العصبية القائمة على الهوى. وانه بذلك خالف مدرسته اللغوية في هذا الاتجاه، وانه حاول ان يصل جديد الادب بقديمه ، وإن خالف جل اللغويين والنقاد والرواة . ولا اكون مسرفا ان قلت : ان المبرد كان اول نهج مهيعا لا حبا ، واضح المعالم والصوى في نظرته الى الشعر .

وانه لقمين بنا ونحن في هذا المقام ان نقف ولو وقفة قصيرة لنفند رأى من انتقص شعر ابي تمام. ان بعض النقاد زنوا شعر ابي تمام بمعائب. منها: حرصه على الصنعة البديعية حتى قالوا ان شعره ليس بشعر الطبع، بل هو شعر الصنعة. والصنعة هذه تبعد شعره عن الشعر. ورميه باختيار الوحشي من الكلام والمستكره من الالفاظ، وعدم ملاءمته بين الالفاظ والمعاني حتى جاء شعره مما تنبو عنه الاذان، ولا تهفو النفوس الى سماعه لاحتوائه كثيرا من الالغاز والاحاجي والمعميات وهذا غير مستملح في ميادين الشعر.

ولسنا بمغالين ان قلنا ان هذه المعائب ليست معائب، بل هي مظهر من مظاهر شاعريته الفذة يحمل بين حناياه اسرار هذه الشاعرية التي يتراءى من خلالها استعداده الفطرى للاتيان بالبليغ من الشعر، وحافظته القوية التي كانت تمده بذخائر ثرة من مفردات اللغة واسرارها وفقهها وقوانينها. وذاكرته المسعفة كانت تمده اذا اهاب بها وسلامة ذوقه المهيمنة عليه فيتخير اللفظ الذي يستدعيه المقام فيخرج اسلوبه مسبوكا. فشعره يصدر عن طبع اصيل وملكة موهوبة، وفطرة ناضجة، وليس بشعر صنعة. وما من شك في ان احدا لا يندم على ما يقضيه من الوقت مع شعر ابي تمام، يقرأ له، ويقلب الطرف فيه، ويقف وقفة متأمل فاحص يشاركه وجدانه الحي، وعواطفه الصادقة، وتصويره النابض، وفنه الساحر، انه يحمل القارىء على ان ينسجم معه. ويشاركه في مشاعره. وما هذه المياسم الا الميسم الحقيقي لشعر ابي تمام. ان شعره كان وما يزال في القمة بين الاداب، يساير الحياة، ويجرى مع الحضارات المتعاقبة، وتلهج الالسنة بترديده والتمثل به. ولا تزال تعاوده رواية، ويعاودها، اشراقا وامتاعا لانه فياض بالمشاعر الصادقة والوجدان الشريف، والتجارب الواعية والالفاظ الرصينة ينتزعها من الحياة نفسها مقرونة بعمق في النظرة، وبعد في المرمى، ودقة في الصياغة. تنال الكلمة منه حقها وتحتج منه وحيها، وهذه الخلال التي كتبت لشعره الخلود، وجعلته ذخيرة ثمينة لا تنفد على مر الايام روعتها، وهي عندنا سر حبنا اياه، واعجابنا

به وانتصارنا له .

لقد ارسل من سوابق القريض ما يعز نواله ، ولا يسهل ترسم اثاره . وماله لايتبوأ هذا المقام بين فحول الشعراء ؟ وهذا ديوانه نقرؤه فلاينتهي تقديرنا ولا يتضاءل اكبارنا واعجابنا . هوشاعر ينبئك مرسل شعره بان نظره كان يلج اعمق الاشياء فيصوغها ابرع صياغة ، ويصورها اروع تصوير . ما من شك في هذا ، ولا كان في وقت من الاوقات مثار حوار بين ذوى البصر والدراية بمنازع الكلام الذين قوموا الكلام بما يحمل من قيمة ادبية وفنية .

فابو تمام شاعر من قبل ومن بعد . ذو اسلوب لاينبئك عن شعره الا ذوقك له . وانك ساعتها لتقول . انه هو . انه ابو تمام الشاعر العبقري .

وبعد : فقد اسهبت ولكن الاسهاب لم يوف ابا تمام حقه ، وان في النفس لكثيرا من الحديث لايتسع الوقت لبثه : فالحديث عن ابي تمام يستنفد الضخام من الاسفار ولكن ان فات الكثير فعلينا ان نورد مايقتضيه المقام ، لعل هذا القليل يكون فيه انصاف لشاعر عبقري سار ذكره في الافاق ، واثار شعره اهتمام الادباء والنقاد وملأ مجامع الادب ومحافله ، ولحث نشئنا المتأدبين ان يغترفوا من نميره العذب علا ونهلاليحسنوا الخلافة في ارثهم عن السلف واحر بهم ان يجدوا من هذه الكنوز ما يجملون به منطقهم ويكسون به سوانحهم ، كي يعطوا تراثهم مايقتضيه من حق عليهم . انهم كادوا يضيعون هذا الحق بعد ان نعب الغربان بالاعراض عن التراث العربي ، والاستعارة عنه بهذه القمامات التي هي السموم بين حنايا بعض الكتب والمجلات الماجنة كي يموت ذوق النشيء ، وتنقطع صلته بماضيه الذي كان مازال مفخرة من مفاخر الدهر .

الملامح الاسلامية في شعر ابي تمام

حازم عبدالله خضر

اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان
من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذي علم
بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم .

صدق الله العظيم

بين يدي البحث :

ما فتىء القرآن الكريم — منذ نزوله على قلب الرسول صلى الله عليه وسلم— ينفث في أرواح الناس وقلوبهم وعقولهم الحياة والنور ويبدد من حولهم ظلمات الجهالة والضلالة والعمى ، ويفتح امامهم المزيد من العلم النافع في شتى جوانب الحياة وبخاصة الجانب الثقافي من حياة الانسان حيث عنى القرآن الكريم به عناية كبرى شأنه في جميع الاحكام ووجه القلوب والعقول الى طلب العلم وجعله فرضا على كل مسلم ومسلمة حتى كان من ثمرات هذه العناية المصنفات العديدة والمعاجم الكثيرة وكتب الادب التي لا تقع تحت حصر سواء ما الف في الماضي او ما الف ويؤلف في الحاضر او المستقبل هذا فضلا عن التصنيف والتأليف في العلوم والمعارف الاخرى التي كان للقرآن فضل السبق والتوجيه في مضي الانسان قدما للبحث فيها واضافة الجديد الى نظرياتها وقواعدها كلما اشرقت شمس يوم من الايام على بني الانسان . . هذا الكتاب الكريم وجه انظار العرب علماء وادباء الى طلب العلم والبحث

، حتى لم يكن عالم او اديب الا كان اساس ثقافته الاولى القران الكريم يقبل عليه في صباه وشبابه يحفظه ويتدارس آياته مستنبطا منها الاحكام والتشريعات حتى اذا بدا له ان يتجه وجهة علمية اخرى ولا يقتصر على القرآن الكريم وعلومه اتجه لما اراد مستفيدا من ذلك الاساس الرصين الذي قوم لسانه وهذب روحه وخلقه وعلمه ان طلب العلم فرض من الفروض المهمة وان فرقا كبيرا بين العلم والجهل قال تعالى: « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون «١» » وقال تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء » . بل إن أول آية نزلت على الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم « اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم «٢» . لهذا كان على كل باحث متأمل في فنون العربية وعلومها خاصة ان يتوقع ملاحظة اثر القرآن والحديث في هذه الفنون والعلوم . بل ربما كان هذا الاثر قد شكل في المؤلفات العديدة الاساس المهم والمنطق الرئيس للتأليف والبحث. يبدو ذلك في غرض الكتاب وموضوعاته وطريقة بحثه ، فضلا عن سيرة مؤلفه وثقافته المعتمدة اساسا على القرآن المرتوية من معينه العذب الرقراق الذى لا ينقضي ابداً ولا ينضب .

والادباء في مقدمة اولئك الباحثين والمؤلفين الذين اعتمدوا في ثقافتهم على القرآن وطبقت مؤلفاتهم بطابعه الاسلامي الواضح المتميز ، واذ كان الشعراء ادباء فاننا لابد ان نجد أثر القرآن في ثقافتهم بعامة وفي قصائدهم وما كانوا ينظمون فيه من أغراض بخاصة . يسري ذلك على الشعراء في العصور المختلفة التي تلت نزول القرآن الكريم على الرسول ، وان كان ذلك بدرجات متفاوتة ضعفا وقوة وكثرة وقلة . وعلى الرغم من أن الشعراء في بعض عصور التاريخ الاسلامي وبخاصة في العصر العباسي ، قد غلب على

---

(١) سورة الرحمن آية ٦٠

(٢) سورة العلق ١ــ٥

الكثيرين منهم طابع المجون واللهو والعبث لاسباب عديدة في محيطهم وفي أنفسهم .. فان أثر القرآن مع كل ذلك يأبى إلا أن يبرز في قصائد هذا الشاعر او ذاك وبخاصة حين يجنح الشاعر الى الزهد ويمارس معانيه نجد هذا الشعر مطبوعا بالمعاني الاسلامية الواضحة وكأن هذه المعاني كانت محجوبة وراء حجب اللهو والعبث حتى اذا خف صوت اللهو والمجون واقترب الشاعر من المنون بمرض او شيخوخة ظهرت هذه المعاني وكثرت حتى كادت تعادل عند بعض الشعراء ما قاله في صباه وشبابه من الشعر وكانت غير مرة مجالا للدراسة والبحث المتخصص المقصود لأهميتها وكثرتها.«١»
واذا كان قسم من هذا الشعر يفتقر الى الحماس والعاطفة اللذين نجدهما في شعر الفترة السابقة من حياة الشاعر فان هذا لا يهم البحث هنا بقدر ما يهمنا وجود هذه المعاني وتوفرها وبالتالي اتخاذها دليلا على ثقافة الشاعر وتأثره بالقرآن والسنة بل بالاسلام جملة.

وابو تمام احد هؤلاء الشعراء الذين تأثروا بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية المطهرة تأثرا بدا واضحا في العديد من القصائد والابيات . . . وقد اشار بعض الباحثين المحدثين الى وجود هذه المعاني في شعر ابي تمام اشارات عابرة لم تتناول استقراء شعره ومتابعة هذه المعاني وتبويبها وارجاعها الى الاصول التي أخذها أبو تمام عنها « ٢ » لذلك رأيت من الواجب علي في ذكرى أبي تمام كشف هذه المعاني ودراستها وارجاعها الى اصولها المستمدة منها مع الاشارة الى توفيق ابي تمام في اخذ المعنى ودرجة هذا التوفيق وذلك بقدر ما تسمح به طبيعة هذا البحث وتستوعبه صفحاته.

ولما كانت المعاني الاسلامية – كما رايت – لا تقتصر عند ابي تمام على معاني الزهد وانما تتناثر في اكثر اغراضه الشعرية رأيت أن اقدم بكلمة موجزة وسريعة لثقافة ابي تمام والطابع العام الذى تميزت به لكي يسهل

(١) زهديات ابي نؤاس – د. علي الزبيدي . على سبيل المثال لا الحصر

(٢) ابرز من تكلم في المعاني الاسلامية في شعر ابي تمام د . عمر فروخ في كتابه : ابو تمام شاعر الخليفة المعتصم . كان كلامه عاماً مختصرا لا يتجاوز صفحة أو بعض صفحة .

بعد ذلك الوقوف على هذه المعاني في شعره وفهمها فهما واضحا مبنيا على نفسية الشاعر وثقافته والبيئة التي عاش فيها.

ثقافة ابي تمام وطابعها الاسلامي :

نشأ ابو تمام في قرية من قرى الشام . وكان أول عهده بالثقافة الاسلامية حضوره حلقات الدرس في الجامع شأن غيره من أولاد المسلمين حيث كان أول ما يتلقاه الصبي في حلقات الدرس هذه حفظ القرآن الكريم ، واذا كنا « لا نعلم اكان ذلك في كتاب القرية أم بعد نزوله مصر واتصاله بجامعها الاكبر . . . » «١» فان ذلك لا يهمنا بقدر ما تهمنا حقيقة تعلمه القرآن وإقباله عليه في سنى حياته الاولى ونحن نعلم أن هذه الجوامع كانت تضم أمهر الحفاظ والمقرئين وكبار المؤدبين المسلمين بفنون لغوية وادبية وخلقية بالاضافة الى المامهم بعلوم القرآن الاساسية والاولاد يتتلمذون عليهم ويتلقون هذه العلوم تباعاً . . .

وبهذا نكون قد امسكنا بالحلقة الاولى في سلسلة حلقات ثقافة هذا الشاعر الفذ ليسهل علينا بعد ذلك تصور ما يعرض لنا من معانيه الاسلامية في شعره التي كانت وما تزال عنوانا مهما على فهمه للاسلام بجوانبه العديدة ونواحيهالشاملة للحياة الانسانية الكاملة حتى كان في شعره الكثير من التلميحات الى ايات القرآن والحوادث التاريخية والاراء المذهبيةو الفلسفية وفي شعره استعمال لكثير من قواعد النحو ... «٢».

كانت ثقافة ابي تمام واسعة المدى متعددة الجوانب اذ لم تقتصر على القرآن الكريم وعلومه بل المرجح انه « انقض على معارف عصره انقضاضا حتى تمثلها تمثلا دقيقا وخاصة التاريخ وعلم الكلام وما يتصل به من الفلسفة والمنطق اما التاريخ فيتضح في كثير من جوانب مديحه وخاصة

(١) ابو تمام الطائي - البهبيتي ص ٦٢

(٢) الاساس في تدريخ الادب العربي ص ٤٨ وما بعدها .

حين يعرض لقبيلة الممدوح ووقائعها وامجادها في الجاهلية والاسلام.... «١»

وعلى الرغم من قلة الاشارات والاخبار فيما يتعلق بالجانب الاسلامي من ثقافة ابي تمام فان الدراسة التالية لشعره بشيء من التفصيل والاستقصاء. تبين لنا مبلغ اعتماد ابي تمام على الاسلام بمصدريه الرئيسين ـ الكتاب والسنة ـ حيث تتكون الفكرة التامة لدى الباحث عن ثقافة ابي تمام الاسلامية والاساس المتين الذي أعتمدت عليه مما ادى الى تفتح فكر ابي تمام على آفاق واسعة في شتى جوانب الحياة لا يتوقف في مديح او هجاء او في اي غرض من اغراضه الشعرية... صور الحياة بجوانبها المختلفة والنفس الانسانية بمنعطفاتها الكثيرة واحوالها وامزجتها... كأحسن ما يكون التصوير واثبت براعة ومقدرة تفوق بها على العديد من شعراء عصره بل حتى على العديدين ممن سبقوه واصبح عدد غير قليل ممن جاء بعده عالة عليه وتلامذة بين يديه يحفظون شعره ويقبلون عليه بالدرس والنقد او التأسي والاقتداء.

وكان ابو تمام استاذا لعدد غير قليل من هؤلاء والمتفوق عليهم في ممارسة الكثير من الاغراض ظهر ذلك في فترات عديدة من حياة الشاعر وفي ظل اكثر من امير او خليفة ومن هؤلاء الواثق الذي كان «... يقول الشعر ويجزل عليه العطاء للشعراء والذين زخر بلاطه بكثير منهم. ومن هؤلاء ابو تمام الذي مهد طريق الحكم والامثال لابي الطيب المتنبي وابي العلاء المعري... » «٢» لهذا كله اثار ابو تمام بثقافته وشعره الدراسات العديدة والمؤلفات الكثيرة قديما وحديثا.

اتهامه بالكفر :

ولعل مما يكمل هذه الصورة حول ثقافة ابي تمام وطابعها الاسلامي ان ننظر نظرة سريعة في نسبة تهمة الكفر لابي تمام .

---

(١) تاريخ الادب العربي ـ العصر العباسي الاول، شوقي ضيف ص ٢٧٦ ، وابو تمام الطائي ، البهبيتي ص ٦٢

(٢) تاريخ الاسلام السياسي ، حسن ابراهيم حسن ص ٨٤ ج ٢

ونكاد نجد ان الصولي قد انفرد «١» بايراد خبر هذه التهمة وما يدور حولها من اخبار فيقول: «وقد ادعى قوم عليه الكفر بل حققوه وجعلوا ذلك سبباً للطعن على شعره وتقبيح حسنه. وما ظننت ان كفرا ينقص من شعر ولا ايمانا يزيد فيه. وكيف يحقق هذا على مثله حتى يسمع الناس لعنة له...» «٢». والذي يفهم من هذا النص عدم ثبوت التهمة سواء من النظر في نص الخبر او من مناقشة الصولي له....

على ان الصولي وغيره يوردون اشارات اخرى تفيد عدم تقيد ابي تمام بالعبادات الاسلامية وخاصة الصلاة فقد كان- على ما يبدو- متهاونا بها لا يؤديها في اوقاتها يقول المسعودي في ذلك «وكان ابو تمام خليعا ماجنا في بعض احواله وربما اداه ذلك الى ترك موجبات فرضه تماجنا لا اعتقادا». «٣»

ونستطيع ان نضيف الى هذا رأي أبي العلاء في تهاون أبي تمام في صلاته او تركه لها احيانا يقول: «قال الحسن بن رجاء الكاتب: جاءني ابو تمام الى خراسان فبلغني انه لا يصلي فوكلنا به من لازمه اياما فلم يره يصلي يوما واحدا فعاتبه فقال: يا مولاي قطعت الى حضرتك من بغداد فاحتملت المشقة وبعد الشقة ولم اره يثقل علي فلو كانت الصلاة تنفعني وتركها يضرني ما تركتها. فاردت قتله فخشيت ان يحمل على غير هذا..» «٤».

ويعلق ابو العلاء على هذا الخبر بعد كلام طويل قائلا «واما ابو تمام فما أمسك من الدين بزمام والحكاية عن ابن رجاء مشهورة والمهجة بعيبها مبهورة....» «٥».

وهكذا يتبين لنا رأي القدماء فيما وجه لابي تمام اضافة الى ما تحمله النصوص

(١) انظر النقد المنهجي عند العرب ص ٧٦
(٢) اخبار أبي تمام - الصولي ص ١٧٣
(٣) مروج الذهب ص ٤٨٠-٣
(٤) رسالة الغفران ص ٤١
(٥) رسالة الغفران ص ٤٨٣

الواردة في ثناياها من عناصر الضعف والاضطراب والمناقضة لحال ابي تمام كما تبدو من شعره الزاخر بالايمان والمعاني الاسلامية الواضحة العديدة. واذا كان الباحث لا يستطيع ان يقرر او يجزم بكفر ابي تمام او زيغ عقيدته او انحراف تدينه فان الذي يمكن ترجيحه ان ابا تمام شأن غيره من الشعراء في عصره كان لاهيا عابثا يغلب عليه طابع التهاون في العبادات والتكاسل عن تأديتها فكان كما قال بعض الباحثين« مستهترا قليل المبالاة بما يتطلبه حسن الاعتقاد». «١»

وهذه ظاهرة تكاد تكون عامة في حياة الشعراء العباسيين على الرغم من المعاني الاسلامية التي توجد في اشعارهم بدرجات متفاوتة قوة وضعفا... على ان اخرين من الباحثين ينظرون الى ابي تمام- من خلال شعره الاسلامي- نظرة ملؤها التفاؤل وحسن الظن فيصفه بالتقوى والورع والمحافظة على الفروض الى حد الافراط والمبالغة حتى ليبدو الرجل التقي العفيف المتصف بالخلق والرزانة وكان «اشد الناس محافظة على الفرائض والنوافل وابعدهم في الحماسة الدينية حتى ليكون احيانا مفرطا فيما يظنه التقوى» «٢».

وهذا القول ينطوي على شيء غير قليل من المبالغة بما يخالف حال ابي تمام وسيرته وبما يمكن ان يوجه اليه من حرص صاحب هذا الرأي على تحقيق نظريته التي طرحها في اوائل بحثه في ثقافة ابي تمام واسلامه حين قال بعد ايراده فكرة اسلام ابي تمام وانتقاله من النصرانية: «والصابئون من عقيدة الى عقيدة والنازعون عن مبدأ الى مبدأ والمنقلبون من سياسة الى سياسة تعظم عصبيتهم للحال الجديدة التي صاروا اليها وتزيد نفرتهم من الحال التي كانوا عليها.. » «٣».

---

(١) إمراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ١٩٢

(٢) ابو تمام شاعر الخليفة المعتصم ص ٧٣

(٣) نفس المصدر ص ٧٣

وهذه النظرة يمكن ان تقابل النظرة الاولى وبذلك تكون النظرة الوسط التي لا ترتفع بأبي تمام الى درجات الاولياء والصالحين ولا تنزل به الى درجات الكفار والمارقين بل هو مسلم متهاون بفرائض الاسلام مع اعتراف بها واقرار بوجوبها دون جحود وانكار اما ما اورده الدكتور فروخ بصدد اسلام ابي تمام وسماه اخرون انتحالا للاسلام «١» فاننا لا نجد صدى يذكر لهذا الخبر فضلا عن ان الكثيرين ممن درسوا ابا تمام وترجموا له نفوا هذه التهمة او لم يلتفتوا اليها اذ لا قيمة لها وان هي الا افتراء اثاره خصوم ابي تمام للحط من قدره والانتقاص من مكانته» «٢» .

المعاني الاسلامية في شعر ابي تمام :

ولنلتفت الى شعر ابي تمام فعنده الخبر اليقين عن ثقافته وعقيدته وسلوكه والحقيقة ان من يستقريء شعر ابي تمام يجده زاخرا بالمعاني الاسلامية بما يفوق الحصر ويعيي الباحث امر تتبعه بدقة واستقصاء بما يجعل البحث طويلا واسعا، لكل ذلك كان جهدي منصبا على المهم الواضح من هذه المعاني ثم نظرت فيها فاذا هي متعددة المصادر والموضوعات مما جعلني اضيفها استنادا الى ذلك. وبهذا كانت المعاني مستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية والفقه الاسلامي والاسلام بصورة عامة. وهكذا كان البحث يتناول بشيء من التفصيل هذه المعاني بحسب الموضوعات التي عالجها ابو تمام في شعره .

---

(١) تاريخ الادب العربي ،حنا الفاخوري ص ٨٦ ؛

(٢) انظر : ابو تمام الطائي ، خضر الطائي ص ٣٧ ؛ وانظر كذلك : ابو تمام الطائي ، البهبيتي ص ٦٢

المعاني والالفاظ المقتبسه من القرآن الكريم :

توج ابو تمام شعره بتاج القرآن الكريم ونثر فيه ازاهيره العطرة فجاء فواحا بالنشر الذكي والنفس القرآني النابض الحي .... والمعاني القرآنية المقتبسة من القرآن الكريم في شعره كثيرة تفوق الحصر .. وكذا كان النهج في ايراد هذه المثل المقتبسة يعتمد الظاهر المشهور ويتجاوز الاشارة البسيطة والمكررة.

ومن هذه النماذج قوله ضمن قصيدته البائية في مدح الحسن بن سهل:

كواعب زارت في ليال قصيرة تخيلن لي من حسنهن كواعبا «١»

فقد اورد لفظة «كواعب» الواردة في القرآن الكريم في اكثر من موضع من ذلك قوله تعالى في سورة النبأ عند تحدث القرآن الكريم عما ينتظر المؤمنين الصادقين في الجنة من الوان النعيم والسعادة قال تعالى: «وكواعب اترابا» «٢». اي حور متشابهات ابكار.

ويكرر ابو تمام هذا المعنى بلفظ اكثر وضوحا وتفصيلا في بائيته التي مدح فيها مالك بن الطوق يقول فيها:

لو ان دهرا رد رجع جوابي اوكف من شأويه طول عتابي
ثنتين كالقمرين حف سناهما بكواعب مثل الدمى اتراب «٣»

وهذا اللفظ من المعنى الذي تضمنه اكثر وضوحا وصراحة في الاقتباس من القرآن الكريم والاعتماد عليه.

ويجمع ابو تمام اكثر معنى في مجموعة واحدة من ابيات في بائيته التي سبق ذكرها وذلك حين اراد التحدث عن ممدوحه وما يتميز به من الخلق الاسلامي العالي فهو مقتد بالرسول في افعاله واقواله ومنها عفوه وتوزيعه للاموال.

---

(١) ديوان ابي تمام ،ص ١٤

(٢) سورة النبأ آية ٣٣

(٣) ديوان ابي تمام ، ص ١٦ - ١٧

فيقول :

أسبل عليهم ستر عفوك مفضلا وانفخ لها من نائل بذناب
لك في رسول الله اعظم اسوة وأجلها في سنة وكتاب
اعطى المؤلفة القلوب رضاهم كملا ورد اخائذ الاحزاب «١»

ويبدو لمن يتأمل هذه الابيات اكثر من اقتباس لفظي ومعنوي.

اما الالفاظ فقد خاطب الممدوح بأن له في رسول الله اعظم اسوة ، وهي الفاظ ، الاسوة ورسول الله، والمؤلفة قلوبهم ، والاحزاب.

واما المعنى فقد وصف ابو تمام ممدوحه بأن قدوته الرسول «ص» وذلك تطبيق لمقتضى الكتاب والسنة. كما ان الممدوح وزع الاموال وهو بهذا مقتد بالرسول «صلى الله عليه وسلم» في توزيع الاموال على مستحقيها وكل هذه المعاني من القرآن الكريم . فالمعنى الاول لك في رسول الله اعظم اسوة » من قوله تعالى « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة » «٢»

والمعنى الثاني مأخوذ من قوله تعالى: «انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم» «٣» واما لفظ الاحزاب فالاشارة فيه الى نصر الرسول والمسلمين على الاحزاب في معركة الخندق حيث تجمع المشركون وتحزبوا على المسلمين وكان النصر حليف المسلمين والممدوح تأسى في هذا بالرسول. ويقتبس ابو تمام من القصص القرآني واخبار الرسل والانبياء العديد من المشاهد والمواقف وها هو يصور لنا نوحا عليه السلام حين يشكر ربه على نعمته التي اولاه اياها بعد ما لاقاه من ضيق وحرج في دعوة قومه الى الله فيقول:

قل للامير لقد قلدتني نعما فت الثناء بها ما هبت الريح
لم يلبس الله نوحا فضل نعمته الا لمالبثه من شكره نوح «٤»

(١) ديوان ابي تمام ، ص ١٨
(٢) سورة الاحزان اية ٢١
(٣) سورة التوبة ٦٠
(٤) ديوان ابي تمام ، ص ٥٥

ويبدو ان ابا تمام يشير الى توسل نوح عليه السلام بربه وشكره له وتركه السؤال عما لا يعنيه فقد سأل ربه عن ابنه فاخبره انه ليس من اتباعه ولا من اهله وزجره ان يعود لمثل ذلك، فرجع نوح مستغفرا منيبا الى الله. فتقبل الله تعالى اثابته واسبغ عليه عظيم نعمته واحسانه. قال تعالى: «قال نوح رب ان ابني من اهلي وان وعدك الحق وانت احكم الحاكمين. قال يا نوح انه ليس من اهلك انه عمل غير صالح فلا تسألني ماليس لك به علم اني اعظك ان تكون من الجاهلين قال رب اني اعوذ بك ان اسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني اكن من الخاسرين، قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى امم محمد معك «١» واذا صح ان ابا تمام قد اعتمد هذه المعاني في ابياته السابقة فانه يكون قد اكد فيها على المعنى اكثر من تأكيده على اللفظ بل اننا لا نكاد نجد في ابياته لفظة واحدة مما ورد في هذه الابيات.

والملاحظ على ابي تمام في هذه المعاني وفي كثير غيرها انه يبالغ كثيرا حين يقرن ما ورد في القرآن من معان الى بعض الممدوحين فيشبههم بالرسل والانبياء.

ويصور ابو تمام اقوال الوشاة وحدة السنتهم واثر اقوالهم فيمن يستمع اليهم فيقول من قصيدة دالية يمدح فيها احمد بن ابي داود:

ومن يأذن الى الواشين تسلق مسامعه بالسنة حداد «٢»

والشاهد في قوله: بألسنة حداد وهو مقتبس من قوله تعالى في القرآن الكريم: «فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد» «٣».

والذي يفهم هنا من اقتباس ابي تمام لهذه الاية في بيته السابق انه يعد الواشين منافقين ذلك ان هذه الآية مع ما تضمنته من معنى وردت في شأن المنافقين المثبطين

---

(١) سورة هود انظر الايات ٤٢ - ٤٩
(٢) ديوان ابي تمام، ص ٦٣
(٣) سورة . . .

للمؤمنين في الخروج الى الجهاد في سبيل الله. «١» ويمدح ابو تمام ابا الحسين محمد بن الهيثم بن شبابة بكثرة العطاء والبذل الى درجة تصل حد الاسراف والتبذير. ولا يجد صورة اصدق في التعبير عن هذا المعنى من اقتباسه لمعنى القرآن الرفيع في مقت التبذير والاسراف فيقول:

له خلق نهى القرآن عنه … وذاك عطاؤه السرف البذار
ولم يك ذاك اصرارا ولكن … تمادت في سجيتها البحار «٢»

وهذ مقتبس من قوله تعالى في صفات المؤمنين: «والذين اذ انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما» «٣» فجعل الاسراف منافيا لصفة الاعيان الحقيقي. ومنه قوله تعالى ايضاً: «ولا تبذر تبذيرا» «٤» واذا كان ابو تمام قد اوحى في بيته الاول ان ممدوحه قد اتصف بصفة نهى الله عنها مما قد يفيد عكس المديح فانه اسرع الى رفع اللبس بذكره ان عطاءه سجية وطبع كالبحار التي لا ينضب ماؤها ولا يقل. وذلك على الرغم مما يثيره التأمل في المعنيين، فان ابا تمام وازن معانيه بالمعنى القراني ليخلص الى القول بأن ممدوحه يعطي عطاءا كبيرا يصل الى حد التبذير في حين حرم الله تعالى التبذير في الانفاق. لكن احتراسه الاخير وضح موازنته ودفع ما يعتريها من غموض.

ومن الامثلة التي دلت على سعة افق ابي تمام في الجوانب الاسلامية وكثرة حفظه لايات القرآن الكريم وقدرته على الاقتباس الناجح المصيب في سرعة ويسر، مع بديهة حاضرة وملاءمة ناجحة. من ذلك الابيات التي اوردها اكثر من ترجمو لابي تمام ودرسوا شعره. ضمن قصيدة سينية مدح فيها احمد بن المعتصم: «حضر ابو تمام عند الكندي فقال له انشدني اقرب ما قلت عهدا، فانشده قصيدته التي يقول فيها:

---

(١) انظر تفسير ابن كثير
(٢) ديوان ابي تمام، ص١٠٦
(٣) سورة الفرقان اية ٦٧
(٤) سورة الاسراء آية ٢٦

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم احنف في ذكاء اياس
فقال له الكندي: ضربت الاقل مثلا للاعلى. فأطرق ابو تمام ثم قال على البديهة.

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس «١»

والصورة الاخيرة في هذه الابيات مأخوذة من قوله تعالى: «الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيهامصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كانها كوكب دري ..» «٢».

وفي رأيي ان دلالة هذه الابيات لا تكمن في اخذه لهذا المعنى فقط بل في المناسبة بين المعنيين وبالتالي تبريره استشهاده على ما ارتفعت منزلته بما كانت منزلته اقل. وكأنه يقول ان الله تعالى حين اراد ان يقرب نوره الى اذهان الناس ضرب لهم المشكاة التي فيها مصباح.. فليس بغريب على ابي تمام اذا ضرب اقدام عمرو وسماحة حاتم وحلم احنف وذكاء اياس امثلة على اقدام احمد بن المعتصم وسماحته وحلمه وذكائه. حتى ولو كان اولئك اقل منه درجة وادنى منزلة.

وفضلا عن كل ذلك فان دلالة هذه الابيات تبدو على انها دليل فطنة ابي تمام وذكائه حتى كانت هذه الابيات شاهدا يذكره الكثيرون من نقاد الادب ومؤرخيه يذكرون هذه الابيات برهانا على سعة افق ابي تمام وثقافته القرآنية وتأثره بهذا القرآن مع سرعة الجواب ورد كيد الخصوم الى نحورهم في اشد الساعات حرجا وضيقا.«٣»

ونمضي في عرض هذه النماذج من شعر ابي تمام حتى نصل الى مديحه لنوح بن عمرو السكسكي من كندة بقصيدة لامية يقول منها:

---

(١) الموشح للمرزباني ص ٣٢٦ وانظر العمدة حـ١ ص ١٩٢

(٢) سورة النور آية ٣٥

(٣) انظر تاريخ الادب العربي، احمد حسن الزيات ص ٣٣٤ وانظر: الادب ومذاهب النقد فيه ص ١٢١

اشدد يديك بحبل نوح معصما تلقاه حبلا بالندى موصولا
ذاك الذي ان كان خلك لم تقل يا ليتني لم اتخذه خليلا «١»

فقد اقتبس قوله تعالى على لسان من ضل بضلال غيره واتبعه على غير هدى «يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلانا خليلا «٢» » فاقتبس في الشطر الثاني من البيت الثاني هذه الاية بلفظها ومعناها وبهذا يكون ابو تمام قد نقل المعنى واللفظ واقتبسه بل وافاد منه فائدة كبيرة ذلك ان هذا الخليل ليس ممن يندم الانسان على صحبته واتخاذه خليلا فهو دائم العطاء والمنح موصول حبل المودة والالفة وليس في خلقه ما ينفر منه او يفضي الى الاسى باتخاذه خلا .

وكلما اقبل الباحث على تقصي مثل هذه النماذج في شعر ابي تمام وجده شاعرا عالما حافظا يستشهد بآي القرآن ويقتبس من انوارها اقباسا تضيء في شعره نور الهداية وتكسبه قوة وتأثيرا وحيوية.

ومن هذه النماذج مدح ابي تمام لابي سعيد محمد بن يوسف الثغري في قصيدته اللامية ومطلعها:

ما لي بعادية الايام من قبل لم يثن كيد النوى كيدى ولا حيلى

يقول فيها:

وبين الله هذا من بريته في قوله خلق الانسان من عجل

اقتبس ابو تمام الشطر الثاني من قوله تعالى «خلق الانسان من عجل» «٣».

وقد يكون اقتباس ابي تمام من القرآن الكريم الفاظا مفردة بعيدة بمعانيها عن المعنى الذي اراده ابو تمام بايرادها فيقول في معرض حديثه لابي سعيد وقد قدم من مكة:

في طريق قد كان قبل شراكا ثم لما علاه صار اديما
لم يحدث نفسا بمكة حتى جازت الكهف خيله والرقيما «٤»

---

(١) يوان ابي تمام ص ١٨٤
(٢) سورة الفرقان ٢٨
(٣) سورة : الانبياء ٣٧
(٤) ديوان ابي تمام ص ٢٢١

فاللفظتان الكهف والرقيم، مقتبستان من القرآن الكريم وذلك ما يوجبه جمعها في شطر واحد، قال تعالى «ام حسبت ان اصحاب الكهف والرقيم كانوا من اياتنا عجبا» «١».

ومن ذلك قول ابي تمام في رثاء محمد بن قحطبة وابا نصر :

ونفس تعاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروع او دونه الكفر
تردى ثياب الموت حمراً فما دجى لها الليل الا وهي من سندس خضر «٢»

فقد اقتبس الفاظ : الكفر ، وسندس خضر.

واللفظتان الاخيرتان من قوله تعالى «ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق» «٣» اما لفظة الكفر فقد ترددت كثيراً في القرآن الكريم بحيث يصعب ايراد المواضع التي وردت فيها وقد تلاحظ في سماع اي قدر يتلى من الايات. كما ان ابا تمام قد ردد هذه اللفظةاو مشتقاتها في مواضع عديدة من شعره وخاصة في قصائده المدحية وحين يتحدث عن قدرة الممدوح وشجاعته وقهره للاعداء، ومن اقتباس ابي تمام من القرآن الكريم وبخاصة في مجال الالفاظ المفردة، قوله في رثاء بني حميد:

لا يبعد الله ملحودا اقام به شخص الحجا وسقاه الواحد الصمد «٤»

فالالفاظ الواحد الصمد، من قوله تعالى: «قل هو الله احد الله الصمد» «٥».

ولعل قدرة ابي تمام تبدو اوضح ما تبدو في اقتباسه للمعنى الكامل مع بعض الالفاظ التي وردت في الكتاب الكريم، من هذا قوله:

ليس يدري الا اللطيف الخبير أي شيء تطوى عليه الصدور «٦»

وهذا المعنى كما يبدو– مع بعض الالفاظ وبشكل متفرق مأخوذ من قوله

---

(١) سورة الكهف آية ٩

(٢) ديوان ابي تمام ص٣٢٠ .

(٣) سوره الكهف آية ٣١ .

(٤) الديوان ص٢١٨ .

(٥) سورة الاخلاص .

(٦) الديوان ص٣٤١ .

تعالى: «وأسروا قولكم اواجهروا به، إنه عليم بذات الصدور، الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير «١» وهناك ايات اخرى في نفس هذا المعنى او بما يقرب منه. ومن التأمل فيما اورده ابو تمام بعد النظر في الآيتين السابقتين يتبين لنا اقتباس ابي تمام للمعنى الكامل المستفاد من الايتين اولا .وتزيين هذا المعنى ببعض الفاظهما ثانيا.

ومن المعاني القرآنية في شعر ابي تمام قوله في مدح الحسن وسليمان ابني وهب.

لئن رمت امرا ساءني عند بكره لقد سرني فعلا كما في عوانه «٢»

في هذا البيت لفظتان من الفاظ القرآن الكريم وهما: بكر وعوان. وقد ورد ذكرهما في سورة البقرة حين تحدث القرآن الكريم عن بني اسرائيل وكثرة الحافهم في السؤال والمراجعة لنبيهم موسى عليه السلام. قال تعالى:

«... قال انه يقول انها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك...» «٣»

والمراد البقرة التي ورد ذكرها في القرآن وكان على بني اسرائيل ان يذبحوها ومن صفاتها ان تكون متوسطة في سنها ليست بكرا صغيرة ولا هرمة كبيرة اما المعنى الذي اراده ابو تمام فهو وصف الممدوح بالعطاء والبذل وفعل الخير في شبابه وكهولته لا يتغير من خلقه شيء كما انه لم يبلغ سن الهرم والعجز حتى يضعف عن العطاء او يبدو في خلقه سوء او انحراف.

ويقول ابو تمام في مدح الواثق:

جعل الخلافة فيه رب قوله للشيء كن فيكون «٤»

وهذا مأخوذ من الاية الكريمة: «انما قولنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون» «٥» ومن هذا اللون ايضا ما ورد في ابيات ابي تمام التي رثى بها ابنا له حيث قال:

---

(١) سورة الملك اية ١٤ .

(٢) الديوان ص٢٤٣ .

(٣) البقرة آية ٦٨ .

(٤) الديوان ص٢٥٠ .

(٥) النحل اية ٤٠ .

كان الذي خفت ان يكونوا انا الى الله راجعون «١»
فالشطر الثاني بأكمله مقتبس من قوله تعالى: «الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون» «٢» .

ولعل في هذا المعنى ما يشير الى شيء من التزام ابي تمام بما يؤمن به من اركان العقيدة الاسلامية فهو يصبر نفسه ويردد قول الله كما اراد الله عز وجل حين وصف المؤمنين وحالهم عندما تصيب احد ذويهم مصيبة الموت. وربما كان هذا ايضا من ادلة فهم ابي تمام للقرآن الكريم وشرح اياته وما تتضمنه من احكام فضلا عن الحفظ.

ويقول ابو تمام:

ما كنت كالسائل الايام مجتهدا عن ليلة القدر في شعبان او رجب «٣»

ويقول ايضا في قصيدة اخرى:

وطمطمت سدا سد يأجوج دونه من الهم لم يفرغ على زبره قطر «٤»

فقد اقتبس الالفاظ: ليلة القدر وسد يأجوج وزبر وقطر. اخذها من ايات عديدة في سور مختلفة. فليلة القدر من السورة المعروفة باسمها وهي قوله: «إنا انزلناه في ليلة القدر..» . وأما سد يأجوج.. وزبر وقطر.. فمن قوله تعالى: «ويسألونك عن ذي القرنين .... الى قوله تعالى: «قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا، قال ما مكني فيه ربي فأعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما. آتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال اتوني افرغ عليه قطرا...» «٥».

(١) الديوان ص٣٣٤ .
(٢) البقرة آية ١٥٦ .
(٣) الديوان ص٣٩٨ .
(٤) الديوان ص٤٠٠ .
(٥) الكهف اية ٨٨ — ٩٨ .

وقد نجد العديد من المعاني الاسلامية في مجموعة واحدة من الابيات اعتمد فيها ابو تمام على آيات عديدة من القرآن الكريم . من ذلك قوله في مدح ابي سعيد محمد بن يوسف الثغري :

من سجايا الطلول ان لا تجيبا ... فصواب من مقلتي ان تصوبا
لو رأى الله ان في الشيب خيراً ... جاورته الابرار في الخلد شيبا
وصليب القناة والرأى والاسـ ... لام سائل بذاك الصليبا
وعر الدين بالجلاد ولكن ... وعور العدو صارت سهوبا
قد رأوه وهو القريب بعيدا ... ورأه وهو البعيد قريبا
فدروب الاشراك تدعى فضاء ... وفضاء الاسلام يدعى دروبا«١»

في هذه الابيات معان اسلامية عديدة . منها قوله في الشيب يذمه ويحاول أن يبرهن على مذمته له بمجاورة الابرار لربهم شباباً قد اعادهم الله من الشيخوخة والهرم الى الصبا والشباب المتفتح البهيج ، ولو كان للشيب قيمة — كما يرى ابو تمام — لما أعاد الله تعالى الناس يوم القيامة شبابا لا يهرمون ولا يشيخون . وذلك مأخوذ من قول الله عز وجل :

« فانشأناهن ابكاراً عرباً اترابا لاصحاب اليمين » «٢»

أى أرجع الله تعالى النساء الكبيرات في السن الى شابات وصبايا في الجنة. والمعنى الاخر يظهر فيه أبو تمام سطوة الممدوح وقوة شكيمته وجهاده لرفع راية الاسلام لايقف أمامه صعب أو عائق، ويجعل بجده وسعيه الضيق فضاء ويملأ الأرض عدلا وأمنا بعد أن كانت مملوءة ظلماً وفوضى . وهذا المعنى قد اعتمده أبو تمام من قواعد الاسلام العامة — كما يبدو — ثم يأتي بعد ذلك المعنى الثالث الذى أخذه ابو تمام من القرآن الكريم في هذه الابيات وجعله ثمرة ونتيجة لما سبق من كلامه وهو قوله: « قد رأوه وهو القريب . . . مأخوذ من قوله تعالى: « انهم يرونه بعيدا ونراه قريباً » «٣»

والملاحظ على المعنى الأخير ان ابا تمام اقتبس اللفظ والمعنى باسلوب معبر

---

(١) الديوان ص٢٢ وانظر امالي المرتضى ص٦١٠ القسم الأول .
(٢) سورة الواقعة ٣٥-٣٨ .
(٣) سورة المعارج اية٦ .

مؤثر ذلك أن الله عز وجل يتحدث عن الكفار وكيف انهم يرون يوم القيامة بعيدا مع أنه قريب منهم . . . .

وأبو تمام يصور اعداء الممدوح بأنهم كانوا قبل أن يحاربهم يرون أن لاطاقة لأحدهم وأنهم سيقهرون كل من يتوجه نحوهم فغلبتهم بعيدة ان لم تكن مستحيلة لكنهم حين رأوا قوة الممدوح وصلابته وصبره وجهاده تحققوا من سوء ظنهم وخطأ تقديرهم وغدا قريبا ما ظنوه يوما أبعد من كل بعيد ومستحيلا لا يتصور حدوثه . .

ويهجو أبو تمام الشاعر يوسف السراج بقصيدة جيمية يقول منها:

للمرء في القرآن اربع نسوة ولتلك أربعة من الازواج «١»

وأبو تمام يعرض بالشاعر ويهجوه عن طريق الطعن بالكثير من صفاته واوضاعه . ولعله في هذا البيت يعرض ببغلة السراج ويصفها بان لها اربعة ازواج وهذا هجاء مقذع يتضح بشرح المعنى المضاد الذى استمده منه اصلا. فهو يشيرالى نص القرآن الكريم الذى يبيح للرجل ان يتزوج اربع نسوة . . .

قال تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع . . » «٢»

لكن الأمر هنا بالعكس ففي الوقت الذى لا يمكن للمرأة في الاسلام ان تتزوج بأكثر من زوج واحد بل وحتى في الاديان والقوانين الاخرى فانه يجعلها ذات ازواج أربعة . فاذا أمكن توجيه كناية ابي تمام الى زوجة الشاعر فيتضح عندئذ نوع الهجاء واثره العميق في بيت واحد من القصيدة فكيف ببقية الابيات . ومن المعاني التي أخذها أبو تمام من القرآن الكريم قوله :

ليست سواه اقواما فكانوا . كما غنى اليتيم بالصعيد

وقد عد الجرجاني هذا البيت من سرقات المتنبي من شعر ابي تمام واورد

---

(١) الديوان ص٢٧٣ .

(٢) سورة النساء آية ٣ .

قول المتنبي :

وزارك بي دون الملوك تحرجي　　اذا عن بحر لم يجزلي التيمم «١»

ولا يقتصر الجرجاني على ايراد هذا فقط بل يذكر مثلا أخرى تدل على سبق ابي تمام وتقدمه على غيره من المشهورين وبخاصة في المعاني الاسلامية . غير أن كثرة استعمال ابي تمام لهذه المعاني لا تعني نجاحه في اخذها دائما فقد أورد بعض النقاد أمثلة من هذه المعاني التي لم يحالف التوفيق ابا تمام فيها ونورد هنا مثلا واحدا ليكون دلالة على غيره من الامثلة المشابهة: يقول الآمدي: « . . ونحن لو رمنا أن نخرج ما في شعر ابي تمام من اللحن أكثر ذلك واتسع ولوجدنا منه ما يضيق العذر فيه ولا يجد المتأول له مخرجاً الا بالطلب والحيلة والتمحل الشديد وذلك مثل قوله:

ثانية في كبد السماء ولم يكن　　لاثنين ثان إذ هما في الغار

معنى هذا البيت ان بابك صار جارا في الصلب لما زيار وهو ثانية في كبد السماء ولم يكن ثانيا لاثنين اذ هما في الغار أى هو ثاني اثنين في الصلب الذي هو رذيلة وليس ثانيا في الغار لأن هذه « فضيلة » «٢» ولعل قول الأمدى وتحليله هذا يؤكد ماأثرناه من ملاحظات وعلامات حول بعض معاني ابي تمام الاسلامية وذلك بالقدر الذي سمح به المقام .

المعاني والالفاظ المقتبسة من السنة :

ولم يقتصر أبو تمام على اقتباسه من القرآن لفظا ومعنى ، وانما أخذ الكثير من الامثلة والقواعد من السنة النبوية الشريفة بالوان واساليب مختلفة تارة باللفظ والمعنى وأخرى بالمعنى فقط . . .

من ذلك قوله في بائيته التي مدح بها اسحق بن ابراهيم المصعبي باسلوب العتـاب :

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٢١٦ .

(٢) الموازنة بين الطائيين ص ٢٨ – ٢٩ .

قل للأمير الذي قد نال ما طلبا ورد من سالف المعروف ما ذهبا
أدعوك دعوة مظلوم وسيلته إن لم تكن بي رحيما فارحم الادبا«١»

فقد ذكر في صدر البيت الثاني عبارة – دعوة مظلوم – وهي مستمدة من الحديث النبوي الشريف الذي يحذر فيه الرسول « صلى الله عليه وسلم » من دعوة المظلوم لسرعة اجابة الله تعالى له وعدم رد دعوته هذه . يقول الرسول « واتق دعوة المظلوم فانه ليس بينها وبين الله حجاب ».«٢»

ويشير أبو تمام – والقياس مع الفارق – الى ان دعوته لا ينبغي للمدعو ان يردها كما أن المظلوم لا يرد الله دعوته . . . والتشبيه ينطوي على المبالغة والتهويل شان الكثير من امثال أبي تمام وتشبيهاته .

ومن المعاني التي استمدها أبو تمام من السنة النبوية المطهرة قوله ضمن قصيدة يمدح فيها المعتصم ويذكر أخذ بابك :

لو عاين الدجال بعض فعاله لانهل دمع الاعور الدجال
أعطى أمير المؤمنين سيوفه فيه الرضى وحكومة المقتال
مستيقنا ان سوف يمحو قتله ما كان من سهو ومن إغفال
مثل الصلاة اذا أقيمت اصلحت ما بعدها من سائر الاعمال«٣»

وأبرز معاني هذه الابيات مأخوذ من السنة النبوية وأول هذه المعاني ما أورده في افعال بابك وأنها شر من افعال الاعور الدجال . والاعور ورد ذكره في السنة النبوية وتحدث عنه الرسول صلى الله عليه وسلم : « . . الدجال أعور العين اليسرى صقال الشعر معه جنة ونار فناره جنة وجنته نار . . »«٤» رواه الشيخان وابو داود ويكفي بهذا المثال رداءة وسوءا ان يشبه بابك به . . .

واما المعنى الاخر فهو من معاني المديح ذلك أن ابا تمام هدم وبنى في وقت واحد فهو حين هجا بابك مدح بالمقابل المعتصم بالشجاعة وقوة البأس وعظيم الفعل حتى كان قتله لبابك مكرمة من المكارم وحسنة محت ما سبقها من سيئات

---

(١) الديوان ص١٩ .
(٢) انظر : جمع الفوائد ج٢ ص ٦١٧
(٣) الديوان ص١٩٦ .
(٤) انظر جمع الفوائد ج٢ ص٧٤٠ .

وأكملت ما كان من خلل او نقص وذلك مثل الصلاة حين عدها الرسول مكملة لعمل المؤمن ودليلا على صلاح اعماله ان كانت صالحة والعكس صحيح . قال الرسول :

« أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة ، فان صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله . . . » . «١» والاعتماد لدى ابي تمام على هذا الحديث واضح بالمعنى التام وبشيءغير قليل من اللفظ .

ومن هذه المعاني المستمدة من السنة قول أبي تمام في رثاء ادريس بن بدر السامي بقصيدة يقول فيها :

ولم أنس سعي الجود خلف سريره باكسف بال يستقل ويطلع
وتكبيره خمساً عليه معالنـاً وإن كان تكبير المصلين اربع «٢»

والذي يفهم من هذه الابيات أن ابا تمام أراد أن يضفي على الممدوح صفة القداسة والاحترام والمكانة الرفيعة فقد تبعه عندموته كل شيء حتى الجود وقف خلف سريره كاسف البال منكس الرأس ، حزينا اشد ما يكون الحزن حتى إنه كبر عليه خمساً مع أن التكبير على الجنازة أربع وذلك لشدة التأثر والحزن ، فقد ورد في السنة المطهرة أن صلاة الجنازة أربع تكبيرات على اغلب الروايات وأصحها ومن هذه الاحاديث ما رواه الستة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعي اليه النجاشي في اليوم الذى مات فيه وخرج بهم الى المصلى فصلى بأصحابه وكبر اربع تكبيرات «٣»

ويأخذ أبو تمام العديد من المعاني من السنة النبوية في الحكم والوفاء او الغدر من الاخلاء ، وحول الدهر وشدائده ، ثم ينتقل الى الحياء وكيف أنه زينة الانسان وقوام حياته اذا فقده فقد كل ما يعتد به وأصبح مستعدا لان يفعل كل شيء . . .

(١) الترغيب والترهيب، المنذري ج١ ص ٢٤٥-٢٤٦ مع مجموعة احاديث في هذا المعنى .
(٢) الديوان ص٣٢١ ،العمدة ج ٢ ص ١٤٩ .
(٣) جمع الفوائد ج١ ص ٣٥٤ .

إذا لم تخش عاقبة الليالـــــي ولم تستحي فاصنع ما تشاء «١»
والشطر بمعناه واغلب الفاظه ـ باستثناء لم ـ مأخوذ من الحديث النبوي الشريف الذي يؤكد فيه الرسول على الحياء وقيمته ووجوب الالتزام به لانه شعار المتقين وشارة الصالحين فيقول : « إن مما ادرك الناس من كلام النبوة الاولى إذا لم تستحي فاصنع ما شئت . . » . «٢» للبخاري وابي داود على أن هناك شواهد أخرى اهتدى فيها أبو تمام بالسنة النبوية وأخذ عنها باللفظ والمعنى وما ذكرناه من المثل يكفي لاعطاء فكرة واضحة عن فهم ابي تمام للسنة وحفظ الكثير من الاحاديث الشريفة الصحيحة وفي مختلف الموضوعات .

وقد لا ينفع ذكر جميع الامثلة بقدر ما تنفع الصورة الواضحة التي تكونها أمثلة بارزة وثيقة الصلة بالسنة لفظا ومعنى . . .

المعاني الفقهية :

وابو تمام لا يثبت في شعره انه من حفظة القرآن أو ممن يحفظون أكثره مع عدد جم من الاحاديث النبوية الصحيحة فحسب ، بل يشير الينا شعره في مواضع عديدة الى أنه كان على قدر لا يستهان به من الفقه بأحكام الشريعة ومراميها ، يبدو ذلك من المعاني الفقهية الكثيرة المتناثرة في شعره على كثرة الاغراض التي عالجها هذا الشعر . . .

ومن هذه المعاني ما أورده ضمن قصيدته التي يمدح فيها أبا الحسن محمد ابن عبد الملك بن صالح الهاشمي ومطلعها :

إن بكاء في الربع من اربـــه فشايعا مغرما على طربـــه

الى أن يقول:

مهذب فدت النبوة والاسـ ـلام قد الشرك من نسبه «٣»
تلك بنات المخاض راتعـــة والعود في كوره وفي قتبه

(١) الديوان ٢٦٤ .
(٢) جمع الفوائد جـ٢ ٣٦٤ والتجريد الصريح .
(١) الديوان ٢٤٢-٤٣ .

والشاهد من السنة في هذين البيتين قوله : بنات المخاض . . .
وبنات المخاض واحدتها ابنة مخاض « صغيرة الابل التي لقحت أمها وقد مضى على ولادتها عشرة أشهر . . » «١»
وتستخرج زكاة على ما بلغ خمساً وعشرين من الابل «٢»
أما الفاظ الاسلام والشرك فقد اشرنا فيما سبق الى كثرتها في شعر ابي تمام كثرة تفوق الحصر حتى لتكاد تبدو من مصطلحاته المعروفة في المديح خاصة.
والمعنى الذى يريده من اعتماد للمعنى الفقهي والمعاني السابقة عليه ان الممدوح قوى بجسمه وخلقه غني بماله واملاكه . . .
ومن المعاني الفقهية التي تطالعنا في شعر ابي تمام كلامه عن الحج وأحكامه بما يقرب من التفصيل والشرح حتى لكانه مع الممدوح في حجه خطوة بخطوة يسجل له كل ما يفعله ويؤديه من المناسك وفي مقدمتها الاحرام والذبح والرمي والسعي وتقبيل الركن . . . الى غير ذلك . . .
وقد جاء هذا في قصيدته التي مدح فيها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغرى وذكر حجه في مطلع القصيدة :

مالي بعادية الأيام من قبل لم يثن كيد النوى كيدي ولاحيلي «٣»

حتى يقول منها :

حطت الى عمدة الاسلام أرحله	والشمس قد نفضت ورسا على الأصل
ملبيا طالما لبى مناديـــه	الى الوغى غير رعديد ولاوكل
ومحرماً أحرقت أرض العراق له	من الندى واكتست ثوبا من البخل
وسافكا لدماء البدن قد سفكت	به دماء ذوى الالحاد والنحل
وراميا حجرات الحج في سنة	رمى بها حجرات اليوم ذى الشعل
يردى ويرقل بين المروتين كما	يردى ويرقل نحو الفارس البطل
تقبل الركن ركن البيت نافلة	وظهر كفك معمور من القبل

(١) المعجم الوسيط ج١ص ٨٦٤ .
(٢) انظر بداية المجتهد ج١ص٢٥٠، باب الزكاة.
(٣) الديوان ص ١٨٨ .

لما تركت بيوت الروم خاوية بالغزو اثرت بيت الله بالقفل
فالحج والغزو مقرونان في قرن فاذهب فأنت ذعاف الخيل والابل «١»
وهكذا يعرض لنا أبو تمام صفحة من صفحات فقهه للعبادات الاسلامية ومنها الحج «٢» باسلوب مؤثر أخاذ ومعبر تعبيرا صادقا عن براعة هذا الشاعر في مزج المديح بالمعاني الفقهية مزجا قد يصعب معه الفصل بينهما فكان كل شطر يحوى منسكاً من مناسك الحج يقابله في الشطر الثاني شارة من شارات الشجاعة والبأس وقهر الاعداء على اختلاف عقائدهم واخلاقهم من ذوى الحاد ونحل متعددة الى فرسان أبطال ورجال اشداء . . .
وبهذا جمع بين الحج والغزو حيث كانت صفة بعض خلفاء العباسيين كما يحدثنا التاريخ بذلك .

ونرى هذا المعنى أيضاً – وصف مناسك الحج – في مدح ابي تمام لعبد العزيز وذكر حجه ايضا فيقول :

وقائلة حج عبد العزيـــز فقلت لها حج غيث الانام
لقد حمل الجمل المستقـل بعبد العزيز سجال الغمـام
مطاف يطوف ببيت الحرام وركن حوى ركنه باستلام
مضى محرماً بخلال الثرى فأرضى به رب بيت الحرام
وفر الى الله من خلقـــه به عائذا خوف ورد الأثام
أقام طويلا يزيد المقـــام فأمر ضنا منه طول المقام
وآب معرى من السيئآت يرفل في الحسنات الجسام
مناسكه مقبولــــــة وحجته برة بالتمــــام
وأبقى مآثر محمودة معمرة عمر ركني شمام
فدونك تهنئة حـــرة نظام امرىء حاذق بالنظام «٣»

---

(١) الديوان ص ١٨٩ .
(٢) انظر بداية المجتهد في اركان الحجيج واحكامه جـ ١ ص ٣٠٨ – ٣٦٣ .
(٣) الديوان ص ٢٤١ .

وفي هذه الابيات يورد أبو تمام أكثر من معنى من معاني الحج : انه يذكر الاحرام والطواف واستلام الركن...ثم يتبع هذا التفصيل امورا تتعلق بتأدية هذه الفريضة وما يترتب على تأديتها بالشكل الشرعي المطلوب واهم ذلك حجه المبرور الذى ليس له جزاء الا الجنة كما ورد في الحديث الشريف.
فقد روى أبو هريرة رضى الله عنه أن الرسول «ص» قال : العمرة الى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور - اي الصادق الصحيح - ليس له جزاء الا الجنة. « ١ »

كما يشير ايضاً الى الهبة التي يهبها الله تعالى لعباده الذين يحجون حجاً مبرورا وهي : تعريتهم من الذنوب ولهذا قال:

وآب معرى من السيئات يرفل بالحسنات الجسام

وهذا مستمد من قوله صلى الله عليه وسلم : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ». «٢»
وهذان الأمران من فقه الحج وشاراته الخطيرة ، ذلك أن الحج الصحيح يجب أن يخلو من الرفث والفسوق ويقوم على التجرد لله تعالى والخروج من الدنيا بعد رد الحقوق والمظالم - ان وجدت - الى أهلها ، فان فعل المسلم ذلك وأقبل على الله تعالى وأدى مناسكه كاملة غير منقوصة كان على الله أن يغفر عنه سيئاته ويرجع الى أهله مغفور الذنب طاهر الثوب والقلب . . .
وهذه معان لاتتيسر لمن يمر على فروض الاسلام واركانه بسرعة وسطحية بل تعتمد على الفهم والتثبت وتحرى الصحيح والابتعاد عن الخطأ . . .
ومثل هذا في معاني الحج والفاظه ما جاء في رائيته حيث يقول:

إما حججت فمقبول ومبرور موفر الحظ منك الذنب مغفور
قضيت من حجة الاسلام واجبها ثم انصرفت ومنك السعي مشكور«٣»

ويلاحظ من يقرأ هذه الابيات تأكيد أبي تمام على نفس المعاني التي رأينا

---

(١) جمع الفوائد ج١ص ٤٣٨ .
(٢) نفس المصدر ج١ص٤٣٨ .
(٣) الديوان ص ٣٤٣ .

الابيات السابقة في القصيدتين تؤكدها. مما يدفعنا الى عدم الاسترسال في التعليق على هذه الابيات وتجاوزها حيث كان في الصور السابقة ما يكفي ويغني

ويورد أبو تمام ألفاظاً فقهية في بعض ابياته تدل على معرفته بالحدود والعقوبات فضلاً عن معرفته بالمناسك والعبادات ، يقول في ابيات ضمن مديحه لابي الحسن محمد بن الهيثم بن شبابة :

اعطيتني دية القتيل وليس لي عقل ولا حق عليك قديم
ألا تدى كالدين حل قضاؤه إن الكريم لمعتفيه غريـــم «١»

والالفاظ الواردة في هذين البيتين ، دية القتيل وهي ما يدفع من المال عقابا على من قتل انسانا خطأ . او عمداً في أحوال وظروف خاصة « ٢ » .

والعقل : من العاقله : وهي العصبة بالنسبة للقتيل من جهة الاب والذين يشتركون في دفع ديته «٣» ومن المعاني الفقهيه قول ابي تمام في قصيدته التي مدح بها الحسن بن وهب ومطلعها :

الا ويل الشجي من الخلي وبالي الربع من احدى بلي

حتى يقول :

أرى الاخوان ما غيبت عنهم بمسقط ذلك الشعب القصي
ومردوداً صفاؤهم عليهـم كما رد النكاح بلاولي «٤»

ونلاحظ أبا تمام يدعم معنى البيت الأول بمعنى البيت الثاني حين يذكر ان صفاء هؤلاء مردود عليهم غير مقبول منهم كما رد بعض الفقهاء نكاح الفتاة من غير موافقة وليها ، حيث اشترط الامام مالك والشافعي موافقة الولي الى جانب موافقة الفتاة نفسها ، قال القرطبي في بداية المجتهد : «اختلف

---

(١) الديوان ، ص ٢٨٨ .
(٢) التشريع الجنائي الاسلامي جـ٢ ص ١٧٦ ومابعدها .
(٣) المعجم الوسيط جـ٢ ، ص ٦٢٣ .
(٤) الديوان ، ص ٢٦١ .

العلماء : هل الولاية شرط من شروط صحة النكاح أم ليست بشرط؟ فذهب مالك الى أنه لا يكون نكاح الا بولي وأنها شرط في الصحة في رواية اشهب عنه وبه قال الشافعي . . » . «١»

ومن المعاني الفقهيه : هذا الاصطلاحان الفقهيان في أحد ابيات قصيدة ابي تمام في مدح محمد بن عبد الملك الزيات ومطلعها :

لهان علينا أن نقول وتفعــلا ونذكر بعض الفضل منك فتفضلا

حتى يخاطبه بقوله:

فوالله ما آتيك الا فريضــة وآتي جميع الناس الا تنفلا «٢»

واللفظتان : فريضة وتنفل من الفاظ الفقه الاسلامي.

أما الفريضة فمعناها : ما يجب على المسلم فعله على وجه الالزام ويمدح فاعله ويثاب كما يذم تاركه ويحاسب .

التنفل : ما ندب الشرع الحكيم الى فعله من غير الزام ، يثاب العبد على فعله ولا يحاسب على تركه ويسمى المندوب والمستحب والتطوع والاحسان والفضيلة . . . » . «٣»

ويكون معنى البيت على هذا الاساس: انني آتيك لاني اعد المجيء اليك فرضا واجبا علي في حين اعد قصد الناس سنة وتنفلا.

والفرق واضح بين المعنيين. كما يتضح ايضا استعانة ابي تمام بالمعاني الاسلامية فقهية وغير فقهية لمعاني مديحه من غير اهتمام بما قد يترتب على ذلك من المبالغة والافراط في صفات الممدوح او التجاوز احيانا على المعاني الإسلامية المنقولة. ذلك ان الواجب المفروض ما يوجبه ويفرضه الله عز وجل ورسوله والسنة ما يتقرب به العبد الى الله والرسول ليزكو عمله وتزال بعض

---

(١) بداية المجتهد ج٢ ص ٨ .

(٢) الديوان ، ص ١٩٠ .

(٣) الوجيز في اصول الفقه ، ص ٢٤-٣٠ .

الاخطاء والمآثم من صحيفة اعماله او تقابلها اعمال حسنة تطغى عليها وتزداد

المعاني الاسلامية العامة :

وفي هذا الباب نرى ابا تمام يعرض في شعره مثلا اسلامية عامة مأخوذة من عموم قواعد الاسلام واصوله الرئيسة والفاظه المشتهرة... يكثر هذا في شعر المديح خاصة.

من ذلك مدح حبيش بن المعافى قاضي نصيبين ورأس العين :

الى خير من ساس البرية عدله ... ووطد اعلام الهدى فاستقرت

حبيش حبيش بن المعافى الذي به ... امرت حبال الدين حتى استمرت

ولولا ابو الليث الهمام لأخلقت ... من الدين اسباب الهدى وارثت

اقر عمود الدين في مستقره ... فقد نهلت منه الليالي وعلت «١»

ويعرض لمثل هذه المعاني في مدحه لابي سعيد محمد بن يوسف الطائي :

تالله ادري الاسلام يشكرها ... في وقعة ام بنو العباس ام ادد

يوم به اخذ الاسلام زينته ... بأسرها واكتسى فخرا به الابد

يوم يجيء اذا قام الحساب ولم ... يذممه بدر ولم يفضح به أحد «٢»

وبهذ نرى المعاني الاسلامية عامة لا تعنى بالتفاصيل الاقليلا فالاسلام هو المعنى بهذا الاقتباس الاسلام الذي يعني الدين الاسلامي والمسلمين، واذا كان ابو تمام قد تطرق الى شيء من التفصيل عند ذكره ليوم الحساب وبدر واحد فان طابع هذه الالفاظ عام ايضا او اقرب الى التاريخ الاسلامي منه الى المعاني الاسلامية البحتة وتطالعنا ابيات اخرى لابي تمام بمعان اسلامية عامة باسلوب اخر يختلف عما وجدناه في المثالين السابقين، فالممدوح هنا لا يفعل الا ما يرضي الله وهو ولي الامة وخادمها والراعي لمصالحها، يحافظ على سمعة الرسول ومكانته بمحافظته على امته ورعايته لها ولنستمع اليه وهو ينشد:

---

(١) الديوان ، ص ٤٨ .

(٢) الديوان ، ص ٧٥ .

الله يشهد ان هديك للرضا فينا ويلعن كل من لم يشهد
اولى امة احمد ما احمد بمضيع ما اوليت امة احمد «١»

ويمدح ابو تمام ابا سعيد بقصيدة تزيد على اربعين بيتا يتعرض في العديد من ابياتها للمعاني الاسلامية العامة يوجهها نحو ممدوحه موضحاً بأسه وشكيمته وقدرته على الحرب وحمايته للثغور وجهاده المتواصل فما اشبهه بالصحابة المجاهدين الابرار ابي عبيدة وخالد وسعد والمثنى وغيرهم...

يا فارس الاسلام انت حميته وكفيته كلب العدو المعتدي
ونصرته بكتائب صيرتها نصبا لعورات العدو بمرصد
اصبحت مفتاح الثغور وقفلها وسداد ثلمتها التي لم تسدد
ادركت فيه دم الشهيد وثاره وفلجت فيه بشكر كل موحد
ضحكت له اجبال مكة ضحكها في يوم بدر والعتاد الشهد
احييت للاسلام نجدة خالد وفسحت فيه لمتهم ولمنجد «٢»

ويمضي ابو تمام في الابيات التالية يسرد اسماء اخرى لبعض الصحابة المشهورين بالجهاد والتضحية والبذل. مع ربط كل هذه المعاني بممدوحه وتوجيهها نحوه...... وفي ابيات اخرى يورد ابو تمام ما يشبه هذه المعاني في قصيدة يمدح فيها ابا سعيد حيث يقول فيها:

هو كوكب الاسلام اية ظلمة يخرق فتح الكفر فيها رار «٣»

وتجد نفس المعنى تقريبا في قوله :—

أمسى بك الاسلام بدرا بعدما محقت بشاشته محاق هلال «٤»

ويحشر ابو تمام المعاني الاسلامية في مجموعة ابيات او في بيت واحد، فنجد فيه المعنى الاسلامي العام وبعض المعاني الفرعية من القرآن او السنة او الفقه...

(١) الديوان ، ص ٨٥ .
(٢) الديوان ، ص ١٠٤ .
(٣) الديوان ، ص ١١٠.
(٤) الديوان ، ص ٢٠٠.

وقد يكون فيها بعض امور العقيدة من جنة ونار او بعض المعاني المتعلقة بالدعوة الاسلامية في فترة من فتراتها.....

يقول ابو تمام في تهنئة الواثق وتعزيته بالمعتصم ابيه :

هدمت صروف الدهر أطول حائط   ضربت دعائمه على الاسلام

ويقول أيضاً :

لغدوا وذاك الحول حول عبادة   فيهم وذاك الشهر شهر صيام

ويقول أيضاً :

هي بيعة الرضوان يشرع وسطها   باب السلامة فادخلوا بسلام «١»

واذا كانت هذه الابيات متباعدة فإن معانيها مختلفة كذلك وهي تعالج مختلف الامور ففي البيت الاول يتطرق أبو تمام الى صلة الممدوح بالاسلام وكيف أنه هدم كل صروح البغي والشرك التي كانت تهدده ...

وفي البيت الثاني يذكر الصوم وهو عبادة من العبادات الاسلامية وأما بيعة الرضوان فيذكرها في البيت الثالث ويقرنها باليمن والخير والسلام كالذي ترتب على هذه البيعة في عهد الرسول من فتح مكة ودخول الناس في الاسلام افواجاً في السنة التي تلتها .

وهكذا لو استعرضنا ابيات القصيدة كلها ، وابياتها تزيد على الخمسين ، لوحدنا المعاني الاسلامية العامة تطالعنا مرات عديدة وفي مجموعات مختلفة من الابيات .

ويمدح أبو تمام المأمون بقصيدة طويلة يتعرض فيها للمعاني والمفاهيم الاسلامية في اماكن عديدة في مثل قوله :

مستسلم لله سائس امــــة   بذوي تجهضمها له استسلام

يتجنب الآثام ثم يخافـها   فكأنما حسناته آثـــام

وقوله :

ما زال حكم الله يشرق وجهه   في الارض مذ نيطت بك الاحكام

---

(١) الديوان ص ٢٠٩ .

وقوله :

لما رأيت الدين يخفق قلبه والكفر فيه تغطرس وعرام
أوريت زند عزائم تحت الدجى أسرجن فكرك والبلاد ظلام

وقوله في نفس القصيدة :

في معرك أما الحمام فمفطر في هبوتيه والكماة صيام «١»

وجميع هذه المعاني مطروقة من قبل أبي تمام في مثل هذه المواقف. وان كان فيها شيء فهو التصوير البارع للحرب والمعركة التي خافها ممدوحه، واستعماله لفظي الافطار والصيام كناية عن الايقاع بالعدو واصابته بأفدح الخسائر لشدة بأس المقاتلين وشجاعة قائدهم وقدرته الفائقة على التصرف الحسن في الازمات واوقات الشدة والحرج الى جانب خلقه العالي الرفيع اذ يتجنب الآثام ويبالغ في ابتعاده عنها حتى ليكاد يعد اثماً ما ليس بأثم ويبتعد عما ينبغي ان يقترب منه ....

وفي مدح أبي تمام لابي سعيد وقد قدم من مكة بقصيدته الميمية التي مطلعها:

إن عهدا لو تعلمان ذميما أن تناما عن ليلتي او تنيما

ضمنها كثيرا من المعاني الاسلامية العامة سواء منها ما كان متعلقاً بالحج او مشيرا اليه، او ما كان منها عاماً :

وأحق الاقوام أن يقضى الدين امرؤ كان للاله غريما
في طريق قد كان قبل شراكاً ثم لما علاه صار أديما
لم يحدث نفساً بمكة حتى جازت الكهف خيله والرقيما
جرم الدين زاره بعد ان لم يبق للكفر والضلال حريما
حين عفى مقام ابليس سامى بالمطايا مقام ابراهيما «٢»

ونكاد نقرأ نفس هذه المعاني ولكن باسلوب آخر في ابياته التي مدح فيها أبا الحسن محمد بن شبابة، تدور حول قوة الممدوح ونصرته للاسلام وخذلانه

---

(١) الديوان ص ٢١١-٢١٣ .

(٢) الديوان ص ٢٢١ .

للكفر وهزيمته شر هزيمة يقول أبو تمام :

طمطمت بالخيل الجبال من العدى والكفر يقعد بالهدى ويقوم
بالسفح من همدان اذ سفحت دما رويت بحجته الرماح الهيم
يوم وسمت به الزمان ووقعة تركت امام الكفر وهو أميم
وبيان ذلك ان أول من حبا وقرى خليل الله ابراهيم «١»

والمعاني الاسلامية في هذه الابيات عديدة لايكاد بيت واحد منها يخلو من اشارة الى معنى من هذه المعاني، ففي البيت لفظة الكفر وما ترتب على وجودها من تزعزع الكفر نفسه وانهزامه امام الهدى .

وفي البيت الثاني لفظة الهيم وهي الابل العطاش وقد شبه بها الرماح واصل المعنى من قوله تعالى: « فشاربون شرب الهيم » «٢» .

وفي البيت الثالث لفظة الدين ولفظة الكفر والمعنى الذي ربط بينهما هو انهزام الكفر امام الدين الذي اشرق فجره وسعدت أيامه ...

وأما البيت الاخير ففيه اسماء: خليل الله وابراهيم. ثم هذا المعنى الذي اخذه من القرآن وهو معنى القري واكرام الضيف الذي كان اول من سنه ابراهيم عليه السلام « فراغ الى اهله فجاء بعجل سمين فقربه اليهم ». «٣»

المعاني الاسلامية في بعض مطولات أبي تمام :

وهذه احدى قصائد ابي تمام الطوال التي عرض فيها صورا عديدة من المعاني الاسلامية تصريحا او تلميحاً مما جعل دراسة هذه القصيدة باستخراج ما تجويه من المعاني الاسلامية امراً تقتضيه طبيعة البحث .

والقصيدة قالها أبو تمام في مدح المعتصم في وقعة عمورية متغنياً بما حققه من نصر وظفر على الاعداء ، وأبو تمام يبدا هذه القصيدة بمطلع مؤثر حاسم يقرر القاعدة التي لا يتم النصر الا بها وهي القوة المتمثلة بعدد الحرب والقتال والسواعد المفتولة القوية ... أما الكتب – ويقصد بها كتب المنجمين –

---

(١) الديوان ص ٢٢٧ .
(٢) سورة الواقعة ٥٥ .
(٣) الذاريات ٢٦ .

فانها قل ان تصدق في ذلك وحتى لو صدقت فهي كاذبة :

السيف أصدق انباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

ثم يمهد أبو تمام لمعانيه الاسلامية بوصف السيوف بأنها صحائف بيضاء ناصعة مجردة عن كل ما يريب . . . ويخلص من ذلك الى رفض فكرة الرجوع الى المنجمين وأخذ بعض اخبار الغيب عنهم ، فان هؤلاء مهما صدقوا فانهم كاذبون وهذا المعنى اسلامي بحت إذ الاسلام يرفض اللجوء الى المنجمين ويعد ذلك ضعفاً في العقيدة ونقصاً في الايمان . . . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :

ليس منا من تطير او تطير له اوتكهن اوتكهن له او سحر أو سحر له ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما انزل على محمد « ص » «١»

ويخلص أبو تمام الى المعاني الاسلامية الاتية في هذه الابيات :

لو بينت قط امرأ قبل موقعه   لم يخف ما حل بالاوثان والصلب

فتح الفتوح تعالى ان يحيط به   نظم من الشعر او نثر من الخطب

فتح تفتح أبواب السماء لـــه   وتبرز الأرض في اثوابها القشب

يا يوم وقعة عمورية انصرفت   عنك المنى حفلا معسولة الحلب

أبقيت جد بني الاسلام في صعد   والمشركين ودار الشرك في صبب

وبهذا يجعل أبو تمام الفتح الذى تم للمسلمين على عديد المعتصم فتحا«٢» عظيما تضيق عن وصفه الخطب والقصائد ، كيف لا وقد هدم الشرك واقتلع جذوره وحطم الاصنام والاوثان وما يتبعها من الوان الشرك والطغيان؟ . . . نصر تفتحت له ابواب السماء فباركه الله تعالى ونفع به من في الأرض حيث دفع الاسلام قدما نحو العلا والمجد في حين دحض الشرك وجعله يهوى الى دركات سحيقة لا تقوم له بعدها قائمة. ويمضي أبو تمام في ربط النصر بالاسلام ودحض الشرك ، يكرر هذا باساليب عديدة ويدخل في كل مرة الفاظاً وتعابير جديدة من ذلك ما يقوله في تصوير المشركين :

(١) الترغيب والترهيب ج٤ ص٣٣ ، باب الترهيب من السحر واتيان الكهان والعرافين .ص٣١-٤٠

(٢) الديوان ص٨

لما رات اختها بالامس قد خربت كان الخراب لها أعدى من الجرب
كم بين حيطانها من فارس بطل قاني الذوائب من آني دم سرب
بسنة السيف والخطي من دمه لاسنة الدين والاسلام مختضب «١»

وفي ابيات أخرى يعرض الفكرة بعد أن يطورها ويغير بعض عناصرها فيخرجها شيئاً جديداً كان لم يسبق له ذكره في ابيات سابقة:

لم يعلم الكفر كم من أعصر كمنت له المنية بين السحر والقضب
تدبير معتصم بالله منتقم لله مرتقب في الله مرتهب
ومطعم النصل لم تكهم أسنته يوماً ولا حجبت عن روح محتجب
لم يغز قوماً ولم ينهض الى بلد الا تقدمه جيش من الرعب «٢»

ونجد ابا تمام في هذه الابيات يؤكد على المعتصم بعد ايراده المعنى الاسلامي العام في البيت الأول فيصف المعتصم باعتصامه بالله — مشتق من اسمه — والانتقام له والمراقبة لله عز وجل والرهبة منه تعالى وهذه الصفات: الاعتصام بالله والانتقام له ومراقبته والرهبة منه قل ان تجتمع في انسان الا كان من الصالحين الابرار والمجاهدين الاخيار الذين نذروا انفسهم لله. عزوا على على الله وصدقوه العزم فصدقهم النصر وكان من نصره لهم جيش الرعب الذي يوقعه في قلوب اعدائهم وقد كان هذا خاصاً بالرسول وورد ذكره في معرض الحديث عن معركة بدر في قوله تعالى:

«إذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين امنوا سالقي في قلوب الذين كفروا الرعب . . . » «٣» ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» «٤»

ولا يختم أبو تمام قصيدته هذه حتى يكرر هذا المعنى مرة أخرى وباسلوب آخر ليكون اخر ما يبقى في ذهن السامع او القارىء وهي نفس الفكرة التي

(١) الديوان ص٩ .
(٢) الديوان ص٩.
(٣) الانفال اية ١٢ .
(٤) جمع الفوائد ج٢ ص ٤٣٩

أكد عليها أبو تمام كثيرا فكرة اعتصام الخليفة بالله واعتماد ه عليه . . .
حتى استحق نصر الله في الدنيا ومثوبته في الاخرة وذلك جزاء المجاهدين المرابطين الذين يخوضون غمرات الموت دون خوف او وجل يبذلون التضحيات الجسام التي تذكر بتضحيات المجاهدين الأول في بدر وأحد وغيرهما . . .

خليفة الله جازى الله سعيك عن جرثومة الدين والاسلام والحسب
بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها تنال الا على جسر من التعب
إن كان بين صروف الدهر من رحم موصولة او زمام غير منقضب
فبين ايامك اللائي نصرت بها وبين أيام بدر أقرب النسب
أبقيت بني الأصفر المصفر كاسمهم صفر الوجوه وجلت اوجه العرب«١»

على أن في القصيدة معاني اسلامية أخرى من قبيل اشارة ابي تمام للخضاب وصلته بالسنة واشارته الى قصةيوشع التي تذهب الى أن الشمس تأخرت من أجله عن مغربها فكأن هذا يوم يوشع إنه يوم المعجزة الكبرى في تاريخ العرب . . ونراه بعد ذلك يتحدث عن هذا اليوم الطاهر الجنب وما فيه من الزواج والعزوبة . . . » «٢» وليست المعاني الاسلامية هي كل ما في القصيدة فقد اورد فيها أبو تمام معاني وثقافات اخرى كاليونانية الى جانب الثقافة العربية . حتى عدها بعض الباحثين مثلا حياً يرينا « كيف تطورت قصيدة المديح العصر العباسي فقد اخذت تستوعب الثقافات المختلفة من عربية واسلامية وفارسية ويونانية . . . » «٣»
ونستطيع أن نلمح الكثير من الاشارات والمعاني الاسلامية العامة والخاصة في قصائد ابي تمام ومطولاته الأخرى وقد كان الواجب أن تدرس هذه القصائد بشيء من التفصيل أيضاً لكن طبيعة هذا البحث وظروفه تحتم الايجاز فكان لابد من الاقتصار على نموذج واحد من أشهر نماذج أبي تمام الشعرية

(١) الديوان ص١٠ .
(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ص٢٥٦-٢٦٠.
(٣) نفس المصدر السابق ص٢٦١ .

وقصائده المطولة وبامكان المرء تكوين فكرة مختصرة واضحة عن طبيعة شعر أبي تمام في قصائده الطويلة والطابع الذي تميزت به وبذلك تبدو ثقافة أبي تمام الاسلامية وقدرته على الاقتباس والأخذ بما يجعل شعره فذا في بابه ، قوي التأثير واضح المعالم والسمات.

الخاتمة :

ونقف الان وقفة قصيرة بعد هذه الجولة الممتعة في شعر ابي تمام وازاهير معانيه الاسلامية . . . نقف لنستعيد أهم النتائج التي يمكن أن يفضي اليها هذا البحث المتواضع . . . وما يمكن ان يضيفه الى حياة ابي تمام وثقافته وشعره على وجه الخصوص .

ويدرك من يتابع هذه المعاني ما كان ينطوي عليه أبو تمام من العلم الواسع بالقرآن والسنة والفقه الاسلامي . . . ذلك العلم الذي نطقت به ابيات كثيرة وقصائد مطولة من شعره . . .

العلم الذي يستبعد معه أن يكون صاحبه من الكفار أو زائغي القصيدة منحرفي الفكر والخلق . . . أما الهوة التي قد تبدو بين سلوك أبي تمام وبين ما أورده من الدلائل والاشارات الاسلامية في مواضع الاحترام والتقدير والاعجاب والتعظيم . . . فيمكن أن ينظر اليها من خلال وضع ابي تمام الشاعر وبيئته التي عاش فيها وقد لا ينفرد وحده بظاهرة الفصل بين السلوك والاعتقاد – التي هي ليست من طبيعة الاسلام – وإنما يشاركه فيها أكثر الشعراء وكثير غيرهم من الناس . . . ولئن كانت هذه الظاهرة خطيرة في المجتمع الاسلامي ، متعلقة بمصيره دنيا وأخرى . . . فلعل مما يشفع لابي تمام خاصة عدم استخفافه بشيء من احكام الاسلام بالانكار اوالجحود ولقد وجدنا ابا تمام يو صف بالتقوى والورع الى جانب وصفه بالمجون والاستهتار فاذا نظرنا اليه من خلال معاصريه او سابقيه من الشعراء فلربما وجدناه

أقلهم استهتارا ومجونا مع ما كان يتميز به من الاخلاق الطيبة والصفات الحميدة إضافة الى تلك الاصداء الايمانية في شعره والمعبرة عن فهمه للاسلام وحبه له وتعظيمه لكتابه الكريم وسنة رسوله العظيم . ظهر ذلك بوضوح في ممارسة ابي تمام للمعاني الاسلامية وابرازها لفضل القرآن الكريم وتأثيره على أهل العلم والادب سواء في انفسهم واخلاقهم أو في آثارهم العلمية والادبية .

وفي معاني أبي تمام الاسلامية يتجلى العموم والشمول لآفاق الشريعة الاسلامية ومصادرها في فكرأبي تمام وامتزاج كل ذلك بروحه وخلقه ، وتردده على لسانه في كثير من المناسبات والمواقف.

ومما يفهم من المعاني القرآنية المقتبسة في شعر ابي تمام حفظه للقرآن او حفظ اكثره بدليل اقتباسه من سور عديدة متباعدة وفيموضوعات متباينة وكان — على الارجح — يفهم القرآن أو يفهم أكثر آياته بدليل التوفيق الذي حالفه في كثير من مواضع الاقتباس والقدرة على الجمع بين المعاني حتى كان مقدار التوفيق الذي حالفه في الاقتباس واضحا جلياً لا يرى فيه من مظاهر الضعف الا قليل .

وقد يفيد اقتباس ابي تمام لآي القرآن الكريم باللفظ والمعنى في اعطاء فكرة عن المستوى الثقافي الرفيع الذي كان عليه مجتمع ابي تمام حتى يخاطب بمثل هذه الاساليب فضلا عما يكنه هذا المجتمع للقرآن والسنة واحكام الشريعة الاسلامية حتى انزل ابا تمام هذه المنزلة الرفيعة في الفكر/ والادب وأوصل شعره الى درجة رفيعة في ادباء عصره وشعرائه.

وتطلعنا هذه الدراسة على حقيقة معرفة أبي تمام للسنة النبوية الشريفة فهماً وحفظا يدل على ذلك ما أورده من المعاني والالفاظ مجتمعة ومنفردة في المواضع المناسبة لها مع الفهم والاحاطة لمدلولاتها.

وهذا بدوره يلفت نظرنا الى أهمية السنة في حياة الناس وكونها مكملة للقرآن الكريم بالشرح والتبيين والتقييد والاطلاق . . . وغير ذلك ، والمتأمل

في معاني السنة التي تضمنها شعر ابي تمام يلحظ العموم والشمول لموضوعات مختلفة حسب ما كان يقتضيه المقام ويجعل ابا تمام قادرا على اخذه ناجحاً في نقله .

ومع ان حفظ السنة وفهمها من الأمور التي تترتب على حفظ القرآن غالباً وان كثيرين من الشعراء كانوا يحفظون قسماً من القرآن والسنة الا أننا نجد ابا تمام قد مارس الاقتباس والاخذ بشكل بارز ملحوظ قد يفوق به كثيرين غيره ممن سبقوه أو عاصروه بل وحتى من الذين جاءوا بعده.

واما المعاني الفقهية فقد كانت هي الأخرى من أدلة ثقافة ابي تمام الاسلامية الواسعة بل ان هذه المعاني –كما ارى– أوضح في الدليل واقوى في الاحتجاج على حفظ القرآن والسنة ، ذلك أن الفقه دليل الفهم الواسع العميق لمصادر الشريعة واستيعاب الاحكام وربما القدرة على الاستنباط واذا كان هذا لا يعني أن ابا تمام كان فقيهاً ، فهو يعني على الاقل أن لابي تمام حظاً لا باس به من الفقه.

وفضلا عن هذا فان المعاني الفقهية التي وردت في شعر شاعرنا عامة قد عالجت مختلف الموضوعات الفقهية من الصلاة والصيام والحج والزكاة الى الوضوء والتيمم . . الى غير ذلك من موضوعات الفقه وابوابه .

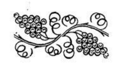
على أن مما يكمل هذا أن المعاني الاسلامية العامة كانت من الادلة القوية الاخرى على ثقافة ابي تمام وسعتها وشمولها لجوانب اسلامية متعددة تعالج مختلف جوانب المجتمع الاسلامي ، يؤيد هذا ويقويه النظرة السريعة في جميع هذه المعاني حيث يتبين أن اكثرها ليس من البسيط المتداول او السهل المعروف ، ولو كان الأمر كذلك لتغيرت النظرة اليها ولكن الأمر – في رأيي – على غير هذا فقد أفصح أبو تمام في معانيه الاسلامية عن علم واسع ومعرفة شاملة في نواحي العقيدة الاسلامية واحكامها ومصادرها مما يقرب من التخصص إن لم يكن هو التخصص بعينه.

وبهذا يكون لابي تمام الفضل في ابراز دور القرآن الكريم والسنة النبوية في الادب العربي في كل عصر ومصر وضرورة اعتماده عليه لكي يسمو الى درجة عالية في اغراضه واساليبه والفاظه ومعانيه . . .

ومن هنا أيضا تبرز أهمية هذا البحث . . . إنه يثير مسألة الصلة القوية بين الادب العربي من جهة وبين عناصره الأولى وفي مقدمتها القرآن والسنة.

ويدعو الى دراسة هذا الادب من هذه الزاوية بابراز المعالم الاسلامية الواضحة في النصوص الادبية واخلاق الادباء وتصرفاتهم . . . ومع أن البحث لم يستوعب جميع الأمثلة التي اقتبس فيها أبو تمام من القرآن والسنة وغيرهما لكثرتها ولطبيعة البحث نفسه فان ما ورد من الأمثلة – على اختلاف اغراضها ومصادرها – يكفي – في رأيي – لتكوين صورة حية واضحة المعالم بارزة السمات عن تأثر ابي تمام بالقرآن والسنة خاصة وبالاسلام عامة.

واذا كان البحث محاولة لابراز الدور الكبير للقرآن والسنة في الادب العربي فلا يضيره ما قد يبدو فيه من النقائص والعيوب فالكمال لله وحده ، وفي اخلاص العزم وصدق النية ومن ثم آراء الادباء والنقاد مايعين على تلافي النقص ورأب الصدع فلنمض جميعاً في طريق العلم النافع الصحيح الذي ندبنا اليه القرآن الكريم وحظنا على طلبه بندائه العلوي الأول للرسول صلى الله عليه وسلم ثم للانسانية جميعا من بعده « اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم »



من وحي ابي تمام

اللغة والأدب في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي

الدكتور يوئيل يوسف عزيز

اثارت ذكرى ابي تمام حب الاستطلاع عندي ، فرحت اتساءل عن حال اللغة والادب في انكلترا في الفترة التي عاش فيها هذا الشاعر العربي . ان مثل هذه الدراسة تكمل الدراسات الاخرى عن ابي تمام وعصره .
وتجعلنا نرى هذا الشاعر في اطار اوسع . وبذلك نستطيع ان نوازنه مع غيره ونعطيه حقه كاملا . اذ ان توسيع افق النظر من شأنه ان يجعلنا نرى الاشياء بابعادها الحقيقية ، ويساعدنا على دراستها دراسة علمية موضوعية .

وبصدد تاريخ مولد ابي تمام ووفاته فان الاراء تتباين . فالاستاذ « كب » Gibb يجعل عام ٨٤٦م تاريخ وفاة الشاعر . ولا يذكر متى ولد هذا الشاعر «١» في حين يعتبر « نيكلسن » Nicholson عام ٨٥٠م هو الصحيح «٢» . وتقول دائرة المعارف الاسلامية : ان ابا تمام ولد عام ١٨٨ هـ ـ ٨٠٤ م وتوفى في ٢٣١ هـ ـ ٨٤٥ م على ما رواه ولده . اما الشاعر نفسه فكان يقول انه ولد في ١٨٩ هـ . ويرجح صاحب دائرة المعارف الاسلاميه ان الشاعر توفي عام ٢٣٢هـ ـ٨٤٦ م . ويظهر من هذا ان الشاعر عاش في النصف الاول من القرن التاسع الميلادي . فتحديد الفترة على هذا الشكل يناسب الدراسة الادبية ، ولننتقل الان من الشرق الى الغرب ، الى انكلترا لنلقي نظرة مجملة على ادبها ولغتها في تلك الفترة .

يعود تاريخ اقدم المؤلفات الادبية الانكليزية المتوفرة لدينا الى عام ٧٠٠ م على وجه التقريب «٣» . اذاً ، يعتبر النصف الاول من القرن التاسع الميلادي

---

1 H.A.R. Gibb, Arabic Literature (Oxford, 1966), P.85
2 Reynold, A. Nichols or Aliterary History of the Arabs (cambridge, 1966), P. 129
3 A. Baugh, A History of the English Language (London, 1968) p 60 .

فترة متقدمة في دراسة اللغة الانكليزية وآدابها ، ويحتاج الباحث في هذه الفترة الى المام جيد باللغة الانكليزية القديمة Old English . وهي لغة تختلف اختلافا كبيرا عن الانكليزية الحديثة Modern English ، من حيث مفرداتها، ولفظها ، وقواعدها . وهي للقارىء الانكليزي المعاصر كاللغة الامانية ، لا يفهمها الا بعد دراسة خاصة . لقد عاشت هذه اللغة القديمة حتى جاء الغزو النورمندي Norman Conquest لانكلترا في عام ١٠٦٦ ، فكان لهذا الغزو اثر كبير على لغة البلاد . فتغيرت كثير من معالم هذه اللغة حتى استحقت تسمية جديدة هي اللغة الانكليزية الوسطى Middle English التي ظلت مستعملة في انكلترا حتى نهاية القرن الخامس عشر . ويعتبر القرن السادس عشر بداية اللغة الانكليزية الحديثة. ان هذه التواريخ تستخدم ايضا في تقسيم الادب الانكليزى الى فترات متميزة . فيدعى ادب الفترة الاولى بالادب الانكليزي القديم ، وادب الفترة الثانيه بالادب الانكليزي المتوسط ، وادب الفترة الاخيره ، بالادب الانكليزي الحديث.

وثمة صعوبة تواجه دارس الادب الانكليزي القديم ، ولا سيما اذا اراد حصر بحثه في نطاق فترة معينة كما هي الحال في هذا المقال وتتمثل هذه الصعوبة في تحديد تواريخ المؤلفات الادبية تحديدا دقيقا ، ومعرفة كتاب هذه المؤلفات «١» . إن جميع ماجاءنا من الشعر الانكليزي القديم نجده في اربع مجاميع : المجموعة الاولى هي المخطوطات التي جمعها «كوتن» سير روبرت Sir Robert Coiton ، وهي في المتحف البريطاني الآن ، ومجموعة « اكستر » Exeter . وقد اهداها الى كاتدرائية اكستر الاسقف «لوفريك» Leofric عام ١٠٥٠ ، ومجموعة « فيرجلي » Vercelli ، وقد وجدت في فيرجلي بالقرب من ميلان عام ١٥٢٢ ، ولم يفسر احد بشكل مقنع كيف وصلت هذه المجموعة الى ذلك المكان ، واخيرا المخطوطات

1- A Literary History England, ed. A. Baugh (London, 1967), p. 22

التي في مكتبة «بو دليان» Bodleian باوكسفورد. وهي التي اهداها الباحث الهولندي فرانسس دوجون «اوجونيوس» Francis Dujon «او جونيوس Gunius» الى ايرل اف ارندل Earl of Arundel . ان اكثر هذه المخطوطات تغفل اسم الشاعر وتاريخ نظم القصيدة والمكان الذي كتبت فيه. وحتى في الحالات التي يذكر فيها اسم الشاعر، فانه يبقى مجرد اسم، لا نعرف شيئا عن الزمن الذى عاش فيه ولا عن المنطقة التي عاش فيها .

اذن، فالمعلومات المتوفرة لدينا عن ازمنة الآثار الادبية ومؤلفيها والاماكن التي تنسب اليها تخضع لكثير من الحدس والتخمين .

ولنعد الان الى الفترة التي نحن بصدد دراستها — ٨٠٠ الى ٨٥٠ م — ونلقي نظرة سريعة على بعض الحوادث المهمة التي سبقتها . لقد غزت الجزيرة البريطانية قبائل جرمانية اتت من شمال اوربا واواسطها وكانت هذه الغزوات على فترات متباعدة في بادىء الامر ثم ازدادت واخذت القبائل الغازية تستوطن في الجزء الجنوبي من الجزيرة، وعلى الساحل الشرقي : وكان ذلك في مستهل القرن الخامس الميلادي ، ويذكر مؤرخو ذلك العصر «١» ان اولئك الغزاة كانوا ينتمون الى ثلاث قبائل كبيرة هي : «الانكلس» Angles ، « والساكسونس » Saxons « والجوتس » Jutes . ولم تكن العلاقـة بين هؤلاء الغزاة والسكان الاصليين « الكلتس » Celts علاقة صداقة في بادىء الامر . اذ تشير كتب التاريخ الى حروب ومذابح وقعت بينهم، ثم تتمدن هذه القبائل شيئا فشيئا ، وما ان يوشك القرن السابع على نهايته حتى نراها قد كونت دويلات صغيرة لبعضها لهجاتها المختلفة وادبها الخاص بها ، وإن كانت جميع هذه الدويلات تتكلم لغة واحدة هي الانكليزية القديمة — او كما يسميها البعض — الانكلوساكسونية

(١) انظر مثلا

1- Bede, Historia Ecclesiastica Gentis Anglorum, Trans. Leo Sherley - Price (Penyuin, 1968), P. 56 .

Anglo - saxon . واشهر هذه الدويلات –على ما يذكر المؤرخون– سبع هي : « نورث امبريا » North Umbria، و « مرشيا » Mercia و « ايست انكليا » East Anglia و « كنت Kent ،و «ايسكس» Essex، و « وسكس » Sussex و « وسكس » Wessex . ثم يحل القرن التاسع ، فيظهر ملك قوى طموح ذكي في « وسكس » هو « اكبرت » Egbert « ٨٠٢–٨٣٩م » . ويحاول ضم بقية الدويلات الى مملكته ، فيتم له ذلك عام ٨٣٠م ، ويصبح « اكبرت » سيد انكلترا ، يدين له زعماء الدويلات الاخرى بالولاء . وهكذا، فقد اصبحت « وست ساكسون » –او وسكس –اقوى واكبر مملكة بين هذه الدويلات.ولقب هذه ملوكها انفسهم بملوك انكلترا. وقد بلغت هذه المملكة درجة كبيرة من الرخاء وانتشرت في ربوعها المعرفة انتشارا ملحوظا، وذلك في عهد الملك الفرد Alferd « ٨٧١–٨٩٩م » ، وسنتحدث عن هذا الملك العظيم عند الكلام عن النثر في القرن التاسع .

لوزار زائر من الشرق انكلترا في ايام ابي تمام لوجد الناس هناك يتكلمون لهجات كثيرة اهمها اربع هي لهجة « نورث امبريا » وموطنها شمال نهر «همبر» Humber ، ولهجة «ميرشيا» Mercia وموطنها بين نهر «همبر» ونهر «التمس» ، ولهجة «كنت» Kent في جنوب شرقي انكلترا ، ولهجة وست ساكسون أو – وسكس – وموطنها في جنوب غربي انكلترا غير ان ما جاءنا من ادب هذه الفتره يكاد يكون كله بلهجة« وست ساكسون» اما الادب الذي كتب باللهجات الاخرى فقد فقد كله تقريباً ، ولم يبق منه سوى جزء يسير نجده مبعثراً هنا وهناك في المخطوطات التي وصلت الينا

لم يكن النصف الاول من القرن التاسع عهد سلام واستقرار في انكلترا اذ اخذت قبائل دانماركية تغزو الساحل الشرقي والجنوبي من الجزيرة البريطانية . وقد بدأت هذه الغزوات في نهاية القرن السابع ، وكان هوءلاء الغزاة وثنيين ، عملوا السيف في رقاب الناس واضرموا النار في

الاديرة ،وهي آنذاك منبع المعرفه.فحرقوا دير «لندزفيرن» Linds Farne وهو احد مراكز العلم والمعرفة — عام ٧٩٣م «١» .ونهبوا في العام التالي دير «جارو» Jarrow ؛ وهو الدير الذي عاش فيه المؤرخ والكاتب الانكليزي «بيد» Bede صاحب الكتاب القيم « التاريخ الديني للانكليز » Historia Ecclesiastica Centis Argrorum. وهو كتاب فريد يكاد يكون المصدر الوحيد للفتره التي كتب عنها المؤلف «٢» . واستمرت هذه الحال في القرن التلي : اذ يشاهد المسافر في « نورث امبريا » و« ميرشيا » في القرن التاسع الكنائس والاديرة الخربة في كل مكان «٣» . ولعل جزءا كبيرا من ادب هاتين المنطقتين قد التهمته النيران، او بقي تحت الانقاض فخسرناه. وهذا يفسر قلة ما وصلنا من لاداب المكتوب بلهجات هذه المناطق من انكلترا .

يعتبر المؤرخون عام ٨٥٠م بنهاية المرحلة الاولى للغزوات الدنماركية. وقد ذكرت « الوقائع الانكلو ساكسونية » Anglo - Saxon Chronicle ان هذه الغزوات بدأت في ٧٨٧م واستمرت على فترات متقطعة وامتازت بالحرق والقتل والنهب، وقد قامت بها جماعات صغيرة مستقلة بعضها عن بعض. ثم كانت المرحلة الثانية التي شاهدت عددا كبيرا من الدانماركيين ينزلون على سواحل انكلترا بسفنهم الكثيرة، وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع ، وهي مرحلة شاهدت انتصار اولئك الغزاة واستيطانهم في مناطق كثيرة، واستيفاء الجزية من اهل البلاد . غير انهم، مع بسالتهم ومهارتهم في الحرب اندحروا اندحارا شنيعا امام رجال الملك « الفرد » عام ٧٧٨ ، وسلمت مملكة « وسكس » من شر هؤلاء الهمجيين وفيما عدا « وسكس » فقد سقطت جميع المناطق الاخرى بيد الدانماركين وسكنوها. فدعيت هذه المناطق فيما بعد بـ « دينلو » Danelaw لقد ترك الدنماركيون الذين استوطنوا انكلترا اثرا مهما في اللغة الانكليزية. ويمكننا ان نكون بعض الفكرة عن اهمية هذا الاثر اذا علمنا ان ضمائر جمع الغائب، وكذلك ضمائر الاشارة. They, them, their(s). this, that, these, those

1 Baugh, History, P.100

(٢) المصدر السابق (٣) المصدر السابق

المستعملة في الانكليزية الحديثة هي دانماركية الاصل، حلت محل الضمائر الانكلوساكسونية في هذه الفترة كما ان هناك عددا ملحوظا من المفردات الدانماركية دخلت الانكليزية آنذاك ولا تزال شائعة حتى يومنا هذا، منها، egg « بيضة » و scale « ميزان » و race « عنصر، عرق » و leg « ساق » و window « شباك » وغيرها من الكلمات المألوفة .

كثيرا ما تكون دراستنا لادب فترة معينة عن طريق دراسة ادباء تلك الفترة — ولا سيما الفطاحلة منهم—فاذا حاولنا تطبيق هذا الاسلوب على دراسة الشعر القديم وجدنا انفسنا امام معضلة كبيرة، وهي ان جميع ما وصلنا من هذا الشعر يكاد يكون بقلم شعراء مجهولين«١».ويستثنى من هذا الشاعر « كوني ولف » Cyne wulf فقد اعتاد هذا الشاعر ان يذيل قصائده بتوقيعه مكتوبا بحروف « الرون » rune «٢».ولا نعرف على وجه الدقة متى ولد هذا الشاعر ولا تاريخ وفاته ، بل كنا نجهل حتى اسمه منذ قرن واحد. اما الآن فالرأي السائد انه عاش في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع في مقاطعة « انكليا » وكتب ما لا يقل عن اربع قصائد في مواضيع دينية. وقد نسب بعضهم الى هذا الشاعر جميع ما جاءنا من الشعر المسيحي للعصر الانكلوساكسوني غير ان هذا مشكوك فيه .

ويتفق النقاد الآن ان « كوني ولف » هو الذي الف قصيدتي « جوليانا » Juliana و « ايلين » Elene وهما ترويان اسطورة القديستين. وهو كذلك مؤلف قصيدة « مصير الرسل » The Fates of the Apostles وهي تروي بايجاز مصير عدد من الرسل. اما القصيدة الرابعة فهي « المسيح » Crist ولعل « كوني ولف » كتب الجزء الثاني منها فقط . وتروي هذه القصيدة قصة ميلاد المسيح وصعوده الى السماء، ويوم الدينونة وهي قصيدة غامضة مرتبكة معقدة. إن ابيات هذا الشاعر سلسة عذبة واسلوبه سهل طليق في القصائد التي

(1) A Literary History of England, P. 70.

(٢) الحروف التي كانت تستعمل في انكلترا قبل مجيء القبائل الجرمانية، استعملها كتاب الكليتك

تعتمد على الترجمة، او تلك التي يستمدها المؤلف من التاريخ. ولكن ابياته تأتي غامضة معقدة في القصائد التي لا تعتمد على الترجمة او التاريخ وهذا ما نلاحظه في قصيدة « ايلين » .

يغلب الطابع الديني على عدد كبير من قصائد الشعر الانكليزي القديم. ثم إن جزءاً كبيراً من هذا الادب مكتوب باللاتينية. غير ان اعظم ملحمة في هذا الادب ليست دينية في موضوعها وان كانت تحوى على عناصر دينية وتدعى هذه الملحمة « بيولف » Beowulf

إن ملحمة « بيولف » لا تدخل في دراستنا هنا، اذ انها جاءت الى انكلترا مع الغزاة الجرمانيين قبل نحو قرنين ونصف من العصر الذي نحن بصدده. وظل يغنيها شاعر البلاط في الولائم والمناسبات حتى عام ٧٠٠م. وفي وقت ما بعد هذا التاريخ، وفي مكان ما في انكلترا، دونت هذه الملحمة العظيمة باللغة الانكليزية القديمة. ولا يعرف من قام بكتابتها، غير انه من المرجح ان يكون احد رجال الدين، حيث انه ادخل شيئاً من العناصر الدينية في هذه الملحمة التي تروي قصة حياة القبائل الجرمانية يوم كانت تعيش في القارة الاوربية، اي قبل مجيئها الى انكلترا. اما القصيدة بشكلها الحاضر فقد دونت حوالي عام ١٠٠٠م. إن هذه الملحمة تروي في ظاهرها قصة الصراع بين البطل الفاضل والملك المثالي «بيولف» وبين الوحوش ، ولكن لها معنى اعمق هو الصراع بين قوى الخير وقوى الشر .

يعتبر النقاد القرن التاسع بداية النثر الادبي، غير ان هذه البداية تأخرت بعض الوقت عن النصف الاول من ذلك القرن. اذ يقول النقاد ان هذا النوع من الادب بدأ في عصر الملك «الفرد» الذي سبق الاشارة اليه . ولد هذا الملك العظيم بعد نحو ثلاث سنوات من وفاة ابي تمام ،وترعرع في مملكة وسكس وشب مع حب العلم والادب. وقد تولى مقاليد الحكم في عام ٨٧١م والبلاد يهددها الغزاة الدانماركيون ويعيثون فيها فسادا. فدمر الاعداء بعد معارك كثيرة ضارية، ومع انشغاله بالحروب فقد وجد متسعا من الوقت

قضاه في طلب المعرفة. اذ رأى ان العلم والادب في انكلترا في حالة يرثى لها، فهو يقول في مقدمة ترجمة «كيوراباستورالس» Cura Pastoralis «١»:

«كثيرا ما اتذكر الماضي » ما اسعد تلك الايام حين كانت انكلترا تزخر بالعلماء، والسلام يعم المملكة، والنجاح حليف ملوك هذه البلاد في الحرب وفي كسب الحكمة. وكان رجال الدين تواقين الى العلم والمعرفة والى تأدية كل الخدمات التي فرضها عليهم الله عز جلاله. وكان طلاب العلم يأتون من خارج البلاد يبغون المعرفة هنا ،ولم يكن اهل البلاد بحاجة الى السفر الى الخارج طلبا للعلم. كيف تدهورت الاحوال في هذه المملكة تدهورا كبيرا حتى ان قليلا من الناس ممن في جنوب«همبر»«٢» يستطيعون قراءة الانكليزية وفهمها والترجمة من اللاتينية اليها، ولا اعتقد ان في شمال «همبر» عددا كبيرا من الناس يستطيعون ذلك. كما لا اظن ان في جنوب «التمس» احدا يملك هذه المعرفة منذ ان توليت الحكم، ويعلم الله عز وجل انه ليس بيننا عالم واحد، لذا فأني امركم- ولا اخال الا انكم تفعلون ما اقوله- ان تحصلوا من معرفة الدنيا التي تجهلونها، وان تكسبوا من حكمة الله تعالى التي جعلها في هذه الارض، كلما استطعتم الى ذلك سبيلا...»«٣»

لقد شخص هذا الملك الداء الذي اصاب بلاده وعرف الدواء. فهو يقول في مكان اخر من هذه المقدمة: ان الناس لا يفهمون الكتب لانها ليست بلغتهم. لذا فقد اقدم على خطوة بسيطة ولكنها ثورية «٤» فعزم ان يكتب بالانكليزية وان يترجم عددا من مصادر المعرفة من اللاتينية الى الانكليزية وقد قام بذلك فعلا. فالى هذا الملك او الى تشجيعه يعود الفضل في ترجمة الكتب اللاتينية التالية: «كيوراباستورالس» للبابا كريكوري، و«تاريخ العالم» History of the World لـ«اوروسيوس» Orosius ، و«عزاء الفلسفة»

(١) الفها البابا كريكوري العظيم Pope Gregory The great

(٢) نهر في شمال انكلترا

(٣) Sweet Anglo-Sxxon Reader,,ed. Dorothy white tock (Oxford, 1967), PP.4-5

(٤) Lilerary History of England, P.96.

De Consolatione Philosophiae لـ«باوثيوس» Boethins و«التاريخ الديني للانكليز» لـ «بير». وهكذا فقد اراد الملك ألفرد ان يقدم كل ما يملكه من المعرفة الى ابناء شعبه. ولعله كان يعتقد ان الخلود يأتي عن طريق العلم والمعرفة وليس عن طريق الجلوس على العرش. فهو يقول عند ترجمته لكتاب «باوثيوس»

رغبت في عمل امرن به قابلياتي لئلا تندثر مواهبي وطاقتي ويواريها النسيان. فكل موهبة طيبة وكل طاقة سرعان ما تهرم وتختفي عن الاسماع ان لم تدخل اليها الحكمة... واوجز فاقول كنت دائما اريد ان اعيش بشرف ما دمت على قيد الحياة، وبعد مماتي اترك للذين يأتون من بعدي ذكراي في الاعمال الطيبة» «١» .

ما اشبه هذا الملك في حبه للعلم والمعرفة بالخليفة المأمون الذي سبقه بنحو نصف قرن.

وقد نتج عن اهتمام الملك الفرد بالانكليزية والكتابة بها ميلاد النثر الادبي الانكليزي. اما ما كتب نثرا قبل هذه الفترة فيكاد يكون كله باللاتينية. وهناك جزء يسير من النثر مكتوب بالانكليزية نجده في بعض القوانين والوقائع التاريخية، غير انه لا يستحق اسم النثر الادبي. «٢» حقا ان النثر الذي كتبه الفرد كثيرا ما يكون ترجمة حرفية عن اللاتينية، له اسلوب معقد ركيك، ولكن يجب ان نتذكر انه هو الذي بدأ هذا النوع من الادب ومهد السبيل لمن جاء بعده

قلنا: ان اللغة الانكليزية في هذه الفترة تدعى باللغة الانكليزية القديمة. وقد تطورت عن الساكسونية القديمة التي اتت بها القبائل الجرمانية في القرن الخامس الميلادي. واللغة الانكليزية القديمة تشبه اللغة العربية في ناحية واحدة، هي انها لغة تركيبية Synthetic تبين وظيفة الكلمة في الجملة عن طريق تغيير اواخر الكلمات — اي الاعراب — وهي بهذا تختلف عن الانكليزية الحديثة التي قلما تتغير اواخر الكلمات فيها؛ بل تبين وظيفة الكلمة في الجملة عن طريق ترتيبها وموقعها في الجملة. وتسمى اللغة التي من هذا

(١) النص الانكليزي في

E–Legouis, Ashort History of English Literature (Oxford, 1968) P.14

(2) Legouis, P. 13.

النوع باللغة التحليلية Analytic .

اما مفردات الانكليزية القديمة فتكاد تكون كلها من اصل انكلوساكسوني ولم يبق من هذه المفردات في الانكليزية الحديثة الا ١٥٪ من الاصل «١». ثم اختلاف في لفظ الحروف بين الانكليزية القديمة والانكليزية الحديثة ولا سيما في حروف العلة ذات النطق الطويل مثل: (A) وقد تطورت في الانكليزية الحديثة الى (O) في بعض الكلمات مثل : bone - ban «عظم». وتطور حرف (i) الى (ai) وهو صوت طويل ، كما في right - riht «حق» وهكذا. اما حروف العلة القصيرة فلم تتغير كثيرا. وهذا يصح على الحروف الصحيحة Consonants ايضا « عدا ان الانكليزية القديمة» كان لها حرف او حرفان لا نجدهما في الانكليزية الحديثة مثل الحرف القريب من «خاء» العربية وكان يكتب (h) كما في كلمة leoht «ضوء» و riht «حق». وكانت الانكليزية القديمة تكتب (sc) لتعبر عن الصوت (sh) . وتميز بين th في thin و then فتكتب الصوت الاول (O) والصوت الثاني (J) . اما املاء الكلمات فلم يكن قد استقر بعد. فكان الكتاب يختلفون فيما بينهم في كتابة الكلمة الواحدة، بل ان الكاتب الواحد كان في بعض الاحيان يكتب الكلمة باشكال مختلفة. فضمير جمع الغائب مثلا نراه يكتب على عدة اشكال منها hee , he , hi , hy , hie وهذا مما يزيد في صعوبة الانكليزية القديمة.

اما قواعد هذه اللغة فكانت معقدة تشبه في بعض النواحي قواعد اللغة العربية. فكان للاسم اربعة او خمسة مواقع لاعراب المفرد، للجمع مثلها. وكانت الصفات تعرب كالاسماء، ولها في ذلك اسلوبان :اسلوب يسمى بالضعيف Weak ويستعمل في الصفات المعرفة. واخر يدعى بالقوي Strong ، ويستخدم في الصفات غير المعرفة. وكانت الاسماء على ثلاثة انواع هي: المذكر والمؤنث والجماد. ولم يكن التمييز بين هذه الاجناس

(1) Baugh, History, P. 63

يعتمد على المنطق Logicelgunder بل على القواعد Grammatical-Gender. فكلمة Stan «حجر» مثلا مذكر، وكلمة Wif man «امرأة» مذكر وكلمة Magden «فتاة» جماد. وكانت اداة التعريف تختلف باختلاف جنس الكلمة وعددها من حيث انها مفرد او جمع.

اما الضمائر فكان لها ضمير المثنى – كالعربية – فضلا عن ضمير المفرد وضمير الجمع. وكانت هذه الضمائر كالاسماء لها اربعة او خمسة مواضع اعراب. اما الافعال فلها ايضا قواعد صرف معقدة. وهي تقسم عادة الى سبع صيغ اساسية، تختلف كل صيغة في صرفها عن الاخرى، وثم صيغ اخرى ثانوية.

لقد تخلصت الانكليزية من كثير من هذا التعقيد بعد الغزو النورمندي. واستقرت بشكلها الحاضر بعد القرن الخامس عشر - وقد تأثرت اللغة الانكليزية خلال سيرها الطويل منذ القرن التاسع حتى هذا اليوم بلغات كثيرة، اهمها اللاتينية والفرنسية والدانماركية والاغريقية والايطالية والالمانية والهندية والفارسية والعربية وغيرها من اللغات.

ولعل من الطريف ان نذكر هنا ان اقدم اثر للغة العربية في اللغة الانكليزية جاء في القرن التاسع، وفي نثر الملك الفرد نفسه. فقد وردت كلمة Nancessa في موضع اخر من مقدمة «كيورا باستورالس» التي ذكرناها والكلمة هذه مشتقة من الكلمة العربية «منقوش». وقد وردت بصيغتها اللاتينية Mancus في كثير من الوثائق التي كتبت في فرنسا وايطاليا واسبانيا واطلقت في احدى وثائق Du Cange «دوكانجي» على نوع من الحلى التي كانت تلبسه المرأة آنذاك. «١» ثم دخلت الكلمة الانكليزية القديمة واطلقت على عملة يقارب ثمنها ٣٠ شلنا «٢».

(1) O E D, s. v. manals.

للاستاذ عبد المنعم رشاد رأي اخر في اصل هذه الكلمة. فهو يرى ان اصلها (المنقوص) نوع من العملة كان مستعملا في البلاد العربية آنذاك.

(٢) ٣ شلنات بالعملة الانكليزية الحديثة (بعد عام ١٩٧٠).

واغلب الظن ان الكلمة العربية دخلت اللاتينية عن طريق التجارة «١» او الترجمة . وبقيت هذه الكلمة مستعملة في الانكليزية حتى بطل استعمال هذا النوع من النقود ، فانقرضت الكلمة على اثر ذلك .

ولعل من المفيد ان نختم هذا المقال بعقد موازنة قصيرة بين الانكليزية وآدابها واللغة العربية وآدابها في النصف الاول من القرن التاسع الميلادي .

يظهر مما ذكرناه في اعلاه ان الشعر الانكليزي في تلك الفترة كان لايزال في بدايته . فقد كانت اوزانه محدودة ، بل كان له وزن واحد هو ما يسمى عليه بقافية الابتداء Alliteraltion ؛ اي ان تبدأ بعض الكلمات من الصدر والعجز بحرف واحد . وكان هذا الشعر خشن النغمة تطغى الحروف الصحيحة ، وتنقصه الرقة والسلاسة والنغمة الموسيقية التي ادخلها اليه النورمانديون بعد الغزو «١٠٦٦م» . اما الشعر العربي فكان قد بلغ شوطا طويلا في تقدمه واكتسب ثروة طائلة تضم الشعر الجاهلي بمعلقاته الجميلة والشعر الاموي وشعر العصر العباسي الاول . وقد تكاملت اوزان هذا الشعر ودرست «درسها الخليل بن احمد الذي توفي عام ٧٩١م» .

اما فيما يتعلق بالفترة التي نحن بصدد دراستها ، فيكفي ان نذكر ثلاثة من شعرائها البارزين هم : ابو نواس «توفي عام ٨١٠م» وابو العتاهية «توفي٨٢٨م» وابو تمام . كي نقدر البون الشاسع بين مابلغه الشعر العربي وما كان عليه الشعر الانكليزي .

لا نجد في النصف الاول من القرن التاسع نثرا أدبياً في الانكليزية ،اذ بدأ هذا النثر في النصف الثاني من ذلك القرن — كما ذكرنا في اعلاه — على يد الملك الفرد والادباء الذين استقوا وحيهم منه . وكان هذا النثر يتصف بكثير من الركاكة والتكلف نتيجة تأثره باللاتينية .

ثم شاهد بعض التطور في القرن التالي ، حتى جاء الغزو النورماندي فاصيب بنكسة كبيرة ، لم يستطع ان يتخلص منها تماما الا في مستهل العصور الحديثة

---

(١) لاحظ Nicholson, P. 281

اي بعد القرن الخامس عشر .

اما النثر الادبي الجيد فلا نجده الا بعد القرن السادس عشر ، اي بعد عصر شكسبير «١٥٦٤–١٦١٦م». ماذا عن النثر الادبي في العربية؟ لقد ظهر هذا النثر قبل النثر الادبي الانكليزي، اذ يقول الاستاذ «كب» ان اقدم ما جاءنا من النثر الادبي في العربية يعود الى النصف الاول من القرن الثامن. ويتمثل في ثلاث رسائل الفها عبد الحميد بن يحي «توفي في ٧٥٠ م » «١». وقد تطور هذا اللون من الادب على يد ابن المقفع «توفي في ٧٥٧م» . ثم «شاعت صناعة الورق في بغداد حوالي عام ٨٠٠ م » «٢» . فأتيحت للمؤلفات النثرية فرصة طيبة. وبلغ النثر درجة ملحوظة من التقدم في القرن التاسع على يد الجاحظ «توفي في ٨٦٩م» وابن قتيبة «توفي في ٨٨٩م» وغيرهما من الكتاب ، في حين كان النثر الانكليزي ما زال في طفولته ضعيفا يتعثر في سيره. ثم ظل النثر العربي يتطور ويكسب كثيرا من عناصر القوة مدة من الزمن؛ تدهوره حتى كان بمجيء الحكم المغولي والحكم العثماني«٣». ويصادف هذا التدهور بداية ظهور النثر الانكليزي الجيد.

يرتبط تقدم الشعر والنثر – ولا سيما النثر – ارتباطا وثيقا بتقدم اللغة اما اللغة الانكليزية في النصف الاول من القرن التاسع فكانت لا تزال في بدء تكوينها ينقصها كثير من مقومات النضوج والكمال. فهي معقدة اذا قورنت بالانكليزية الحديثة. وظلت اكبر عثرة في طريق تقدم هذه اللغة هي اللغة اللاتينية ، لغة المثقفين في جميع اوربا آنذاك. وبعد الغزو النورماندي دخلت انكلترا لغة اخرى هي الفرنسية، واستعملت في البلاط والجهات الرسمية والمدارس وكانت لغة الطبقة العليا. فاصبحت لزاما على الانكليزية ان تتنافس مع الفرنسية فضلا عن اللاتينية، ولم يتم لها النصر على الفرنسية الا في نهاية القرن الرابع عشر. اما صراعها مع اللاتينية فكان اشد واطول وقد

---

(1) Gibb,P. 15

(٢) المصدر السابق .

(3) Gibb, P. 155

استمر حتى القرن السادس عشر. فهذا سير توماس مور Sir Thomas More «١٤٧٨ – ١٥٣٥م» يؤلف اهم كتبه -يوتوبيا utopia -باللاتينية. وهذا فرانسس بيكن Francs Bacan «١٥٥٤– ١٦٢٦» يقول ان الانكليزية ستفشل في يوم من الايام كاداة للتعبير عن الامور الخطيرة، لذا فقد كتب مؤلفاته الفلسفية باللاتينية. ولم تكتسب الانكليزية ثقة جميع المثقفين في انكلترا، وتثبت اقدامها ويعقد لها النصر نهائيا الا بعد عصر النهضة الاوربية اي في القرن السادس عشر. وعبثا نحاول أن نجد كتابا عن قواعد النحو والصرف والبلاغة لهذه اللغة كتب قبل القرن السادس عشر. اذا، فبين النصف الاول من القرن التاسع و القرن السادس عشر طريقة شاقة كان على الانكليزية ان تقطعها قبل ان تستكمل مقوماتها اللغوية وتظهر بشكلها الحاضر. ولننظر الان الى اللغة العربية في النصف الاول من القرن التاسع الميلادي نجد ان هذه اللغة قد تكاملت مقوماتها، وبلغت دراسة فقه اللغة والنحو والصرف درجة عالية. فقد ازدهرت مدرسة البصرة والكوفة وقدمت هاتان المدرستان مادة لغوية قيمة. ويكفي ان نذكر ان سيبويه «توفي في ٧٩١م» قد الف كتابه قبل هذه الفترة، وهو الكتاب الذي لا يزال يدرس حتى يومنا هذا.

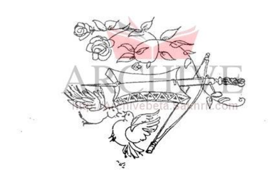
ويصح ما قلناه عن اللغة وادابها على فروع المعرفة الاخرى: كالفلسفة والتاريخ والرياضيات والطب. فهذا الفيلسوف الكندي «توفي في ٨٥٠م» يؤلف اكثر من ٢٦٥ رسالة في مختلف العلوم من موسيقى وفلك ورياضيات وطب وعلم الاخلاق والمنطق وعلم ما وراء الطبيعة «١». ويبرز في الرياضيات اسم الخوارزمي «توفي في ٨٤٤م» وقد ترجمت كثير من مؤلفاته في الجبر والفلك الى اللاتينية وعنه اخذت اوربا اللوغرتمات «٢». واشتهر في الطب ابن ماسويه «توفي في ٨٥٩». ونذكر من مؤرخي القرن التاسع البلاذري

(1) Gibb., P.65

(٢) المصدر السابق Gibb.,

«توفي في ٨٩٢م» واليعقوبي «توفي في ٨٩١م» والمؤرخ الكبير الطبري الذي ولد في هذا القرن «٨٣٩م» وعاش حتى الربع الاول من القرن العاشر «٩٢٣م».
هذه اسماء بعض من برزوا في ميادين المعرفة المختلفة في القرن التاسع. فاذا حاولنا ان نبحث في تاريخ انكلترا لهذه الفترة عن اسماء تضاهي تلك التي ذكرناها باءت مساعينا بالفشل.

يتضح من كل هذا ان القرن التاسع يعتبر اول الطريق بالنسبة للانكليزية وادابها، في حين انه كان عصرا ذهبيا «١» بالنسبة للعربية وادابها.



(1) Nicholson,xxx ; Gibb, PP 48